أشهر الجمعيات السرية في التاريخ



دار الكاتب العربي

دار الشوّاف للنشر



أشهر الجمعيات السرية في التاريخ



أشهر الجمعيات السرية في التاريخ

دار الكاتب العربي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الكاتب العربي

جمعية فرسان المعبد

Les Templiers

(١) الحروب الصليبية وسيلة انتقال النظم السرية الى الغرب . فرسان المعبد ونشأة جمعيتهم . انحرافهم عن مبادئهم (٢) سوء سمعتهم . محاكمتهم في فرنسا . التهم التي نسبت اليهم . تحقيق البابا . مطاردة الفرسان في بقية الدول . حل الفرسان . اعدام الاستاذ الاعظم (٣) اشتداد بأس الفرسان حقيقة التهم التي نسبت اليهم . تعاليمهم السرية . التماثل بينهم وبين الاسماعيلية . خروجهم على النصرانية (٤) رواية حديثة عن الفرسان . سر الخلاف بينهم وبين البابوية . رسومهم في الالتحاق . غايتهم الحقيقية

١ ـ ننتقل الآن الى الجمعيات السرية الغربية ، والى الدور الذي قامت به في تاريخ العصور الوسطى والحديثة ، والى ماكان لها من أثر في مصائر الكنيسة والمجتمعات والدول

لم تعرف أوربا قبل الحروب الصليبية انشاء الجمعيات السرية على مثل شامل عام كالذي عرفه المشرق ، والاسلام بنوع خاص ، فكانت الحروب الصليبية وسيلة لوقوف الدعاة وأصحاب النظريات الثورية وأحرار المفكرين من أبناء الغرب، على أسرار الجمعيات السرية ونظمها ، والحركات الهادمة وخططها ، من شيوخ الاحرار والدعاة وأقطاب الهدامين والمتآمرين في المشرق . وقد رأينا ان دعوات الهدم والجمعيات السرية بلغت في الاسلام ذروتها من الاحكام والازدهار، فعن المسلمين أخذ الغربيون نظم الجمعيات السرية الدينية والسياسية ، وعلى مثل القرامطه والاسماعيلية وتعاليم دار الحكمة انشئت معظم الجمعيات السرية في الغرب وبالاخص معظم جمعيات الاغتيال المنظم مثل الكربوناري والنهليست ، والاخاء الجمهوري الارلندي وغيرها

عرف الغربيون هذه المبادىء والنظم في مهاد الحروب الصليبية كما عرفوا غيرها من نظم المشرق وشؤونه. وكانت أول جمعية سرية منظمة انشئت على أثر هذا الاحتكاك بين المشرق والمغرب هي جمعية فرسان المعبد، انشئت في سنة ١١١٨م. أي عقب انقضاء الحرب الصليبية الاولى وسقوط انطاكية وبيت المقدس في يد الصليبين وتعين جودفروا دي بوبون ملكا على بيت المقدس بتسعة عشرة سنة . وقام بانشائها عصبة

من تسعة سادة فرنسيين برياسة هوك دي بايان وجودفروا دي سانتومار لتعنى بحماية حجاج القبر المقدس ، وكان ملك بيت المقدس حينئذ بلدوين الثاني فقدم للجمعية منزلا لتقيم فيه بالقرب من موقع معبد سليمان ، ولهذا سميت بفرسان المعبد واشتهرت بذلك الاسم. وفي سنة ١١٢٨ صادق مجلس تروي المقدس على انشاء الجمعية ، وكذلك صادق عليه البابا ، وأصدرت لفرسان المعبد وثيقة اقسموا فيها بالتزام الفاقة والعفة والطاعة شعاراً للجمعية

قام فرسان المعبد بادىء بدء بطائفة من الاعمال القيمة وامتازوا بالاخلاص والشجاعة في كثير من المعارك ، ولكن التزامهم ألا يعيشوا من غير الصدقات أدى الى أن تماطرت عليهم الهبات الضخمة من كل صوب ، فكثرت أموالهم ونبذوا قسم الفاقة وانتشروا في الاقطار الاوربية وغدوا قبل نهاية القرن الثاني عشر جمعية غنية شديدة البأس ، وغدت المعارك الصليبية لهم مصدراً للجاه والثروة وناهض زعماؤهم الملوك في الفخامة والسلطان والبذخ فانقلبوا من حماية اخوانهم في الدين الى سلبهم ومن محالفة الصليبيين الى نبذهم بل خياناتهم ومحاربتهم في بعض المواقف ، من ذلك ما ينسب اليهم من انهم كانوا على تفاهم مع حامية دمشق الاسلاميــة حينما أخفق الامبراطور كونراد الثالث في الاستيلاء على المدينة سنة ١٢١٩ ، وانهم في سنة ١١٤٥ باعوا الى المسلمين أميراً مسلماً أراد ان يتنصر بمبلغ ستين الف دينار . ثم انهم في سنة ١١٦٦ سلموا بطريق الخيانة حصناً الى الملك نور الدين فشنق اموري ملك بيت المقدس ، منهم اثنى عشر كذلك ينسب اليهم انهم كانوا على اتصال باسماعيلية الشام ، وشركائهم في تدبير عدة من جرائم الاغتيال التي ذهب ضحيتها عدد من امراء الفرنج وكبار فرسانهم

٢ ــ وفي أواخر القرن الثالث عشر ساءت سمعة فرسان المعبد ، وغدوا موضعاً للريب في نظر العامة فضلاً عن رجال الدين ، ونسبت اليهم أمور وفضائح كثيرة كالادمان في شرب الخمور والتهتك والاجتراء على الكبائر ، وحامت شبه كثيرة حول مبادئهم الدينية ومعتقداتهم السرية حتى ان البابا كلمنص الخامس في سنة ١٣٠٥ أمر أستاذهم الاعظم وهو يومئذ جاك دي مولاي أن يغادر قبرص حيث كان يعنى بتنظيم القوات الصليبية ، فعاد الى فرنسا مع ستين من اعضاء الجمعية ، ومقدار كبير من المال والفضــة والحلي التي جمعها الفرسان في المشرق . وأخذ البابا في تحقيق ما اتهم به الفرسان من الارتداد عن دين النصرانية واعتناق مبادىء الوثنيــة ، والاغراق في

صنوف الكفر والكبائر. وكان فيليب الجميل ملك فرنسا على وفاق مع الفرسان بادىء بدء، غير أنه ارتاع بعد لما أذيع عن مبادئهم ومقاصدهم السرية من التهم الشنيعة فسبق البابا الى مطاردتهم ومحاكمتهم وقبض على جميع فرسان المعبد الفرنسيين في أكتوبر سنة ١٣٠٧، ووجه اليهم المحقق العام التهم الآتية:

(١) ان رسوم الانتحاق بجمعيتهم تقترن باهانة الصليب، وانكار المسيح، وأعمال فجور شنيعة

(٢) أنهم يعبدون صنما يقال انه صورة للاله الحقيقي

(٣) انهم يغفلون الفاظ التقديس حين القاء القداس

(٤) ان زعماءهم يزاولون حق منح الغفران مع أنهم ليسوا من رجال الدين

(٥) انهم يبيحون ارتكاب العمل الاجتماعي الشاذ

وقد اعترف بهذه التهم كثير من الفرسان ومنهم الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي نفسه، وقرر بعضهم أنهم عند التحاقهم بالجمعية يقدم اليهم صليب نصب عليه تمثال للمسيح ويسألون هل يعتقدون في ألوهيته فاذا أجابوا نعم قيل لهم أنهم على ضلال لان المسيح ليس الهاً بل هو نبي زائف. وقرر آخرون انه قدم اليهم صنم أو رأس ملتحية ليعبدوه، وآخرون أنهم كانوا يؤمرون بالبصق على الصليب، وكثيرون منهم أمروا بارتكاب صنوف شائنة من الفجور مثل العمل الاجتماعي الشاذ وأنذروا بالسجن والعذاب اذا رفضوا امتثال الاوامر. ثم قرر البابا كليمنص الخامس رغم احتجاجه على تصرف فيليب الجميل أن يجري بشأن هذه التهم تحقيقاً حراً، لان تحقيق المحقق العام الفرنسي كان مقروناً بالتعذيب، فسمع المحقق أقوال عدد كبير من الفرسان بحضور البابا نفسه، واستجوب الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي ودعاة الجمعية امام لجنة من الكرادلة، فأقروا بما نسب الى الجمعية من انكار المسيح وإهانة الصليب، وأيدوا ما قرروه أمام المحقق الفرنسي العام من ارتكابها لطائفة من الرذائل المقوتة؛ ومع ذلك لم يقتنع البابا باجرام الجمعية بصفة عامة وقرر أن يعين لجنة بابوية للتحقيق في باريس فبدأت عملها في نوفمبر سنة ١٣٠٩، واستدعى الاستاذ الاعظم ونيف ومائتين فارس، وسار التحقيق ببطء على يد جماعة من كبار الاحبار والاساقفة، فعدل بعض الفرسان ومنهم الاستاذ الاعظم عن اعترافاتهم، وأيد البعض الآخر صحة التهم الشنيعة التي نسبت الى الجمعية، وسارت تحقيقات أخرى مع الفرسان في عدة من المدن الايطالية وفي المانيا وانتهت بأن اصدر البابا كليمنص الخامس قراراً اشار فيه « الى جرائم

الـكفر الشنيع » التي يرتكبها الفرسان . وفي نفس الوقت قبض ادوارد الثاني ملك انجلترا على جميع الفرسان في انجلترا وحقق معهم فاعترف بعضهم بما تقدم من التهم ، وشهد ايضاً بصحتها شهود من الخارج

ولما افتضحت أسرار فرسان المعبد على هذا النحو سخطت عليهم كل الهيئات الدينية في جميع الدول واتخذ البابا الخطوة الحاسمة ، واصدر مجلس فينا المقدس في سنة ١٣١٢ قراراً بحل الجمعية فشرد الفرسان اينما وجدوا ، ولاقوا في فرنسا أشنع ضروب الاضطهاد والايذاء ، فاحرق منهم أربعة وخمسون احياء في سـنة ١٣١٠ ثم أحرق الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي في مارس سنة ١٣١٤

٣ ـ ومع ذلك فقد نفى بعض المؤرخين عن الفرسان هـذه التهم ونسبوا الى فيليب الجميل أنه حمل على مطاردتهم طمعاً في أموالهم وأملاكهم الشاسـعة . ومهما كانت الحقيقة فانه يوجد ثمة ما يدل على أن الفرسان وصلوا في ذلك العهد الى حد مزعج من الجاه والسلطان والغنى وبلغ من خروجهم على السلطة الملـكية أنهم كانوا يأبون دفع الضرائب . ومن المرجح أن فيليب الجميل خشي أن يتفاقم خطرهم على السلطة الملـكية ، هذا الى ان دعوة الفرسان غدت في كثير من الاحوال خطراً على النظم الاجتماعية والاقتصادية بل الاخلاقية

والواقع أنهم تغلغلوا في جميع النواحي والشئون ، ونظموا لهم فروعاً قوية في جميع البلدان وأحرزوا فيها الاملاك الضخمة ، وباشروا كثيراً من الاجراءات المالية التي تقوم بها البنوك اليوم كاصدار السندات والتحاويل ودفع الارباح عن الودائع ، وادارة الحسابات الخاصة ، وكانوا فوق ذلك عضداً قوياً للسادة والاحبار يفرضون لهم الضرائب على اقطاعاتهم ويحصلونها

والظاهر أن الفرسان كانوا بالنسبة للتهم التي وجهت اليهم مذنبين وأبرياء في نفس الوقت أعني أنهم كانوا يكشفون عن أسرارهم وتعاليمهم الدينيـة الى عدد من الدعاة المقربين وان السواد منهم كان يجهل هـذه الاسرار او بعبـارة أخرى كان للفرسان طريقتان في تجنيد الاعضاء تقترن احداهما بالانكار وانتهاك تعاليم الدين والاخلاق ولا تستعمل الا مع المخلصين من المتنورين وأحرار المفكرين ، والاخرى عادية للدهماء والكافة . وهذه هي خطة معظم الجمعيات السرية ولا سيما الاسماعيلية . وهذا ما يراه لوازلير في كتابه عن تعاليم الفرسان حيث يقول : « اذا نحن رجعنا الى تعاليم جمعية المعبد كما وصلت الينا لم نجد قط ما يؤيد التهم الغريبة الشنيعة التي اذيعت

في التحقيق. ولكن ألم يكن للجمعية خلاف التعاليم العامة، تعاليم أخرى سواء مكتوبة أو شفوية تخول او تفرض ارتكاب هذه الفعال، أعني تعاليم سرية لا تكشف الا للخاصة من الاعضاء ؟ »

أما تعاليم الفرسان السرية فموضوع خلاف كبير. يقول البعض ومنهم المؤرخ الالماني رانكه أن نظرية الفرسان السرية هي « نظرية الاسلام في وحدة الآله »، ويقول آخرون أنها اشتقت من نظريات الملحدين المسلمين، وان فارساً يدعى جيوم دي مونبار تلقى مذهب الاسماعيلية على يد شيخ الجبل في مغار في جبل لبنان حينما كان مركز الفرسان في فلسطين. وقد أشار فون هامار الى ذلك الشبه بين تعاليم الاسماعيلية والفرسان، وأوضحه كلافل مؤرخ البناء الحر في قوله: « يرينا المؤرخون الشرقيون في عصور مختلفة أن جمعية فرسان المعبد كانت ذات علائق وثيقة مع الاسماعيلية، ويؤكدون التماثل بين الطائفتين، فيقولون إنهما اختارتا نفس اللونين وهما الاحمر والابيض، واتبعتا نفس النظام، ونفس المراتب، فكانت مراتب الفدائيين والرفاق والدعاة في احداهما تقابل مراتب المبتدىء والمنتهي والفارس في الاخرى، وان كلتاهما تآمرت لهدم الدين الذي كانت تتظاهر باعتناقه أمام العامة، وأخيراً ان كلتاهما كانت تملك حصوناً عديدة، الاسماعيلية في آسيا والفرسان في أوربا »

وعلى أي حال فقد كان الفرسان خوارج على النصرانية لا يؤمنون بألوهية المسيح، ولعلهم كانوا مانوية او ثنوية، ويعرف لوازلير نظريتهم في الالوهية بقوله: « يعترف فرسان المعبد في نفس الوقت باله خير لا يصل البشر اليه وليست له أشكال مادية ظاهرة، واله شرير يمثلونه بصنم رائع الشكل ... وهو الاله الادنى، منظم العالم المادي وسيده، خالق الخير والشر، الذي نفث الشر في الخليقة »

٤ ـ وقد ذاعت في منتصف القرن التاسع عشر نظرية جديدة بشأن مذهب فرسان المعبد خلاصتها أن الفرسان تلقوا عن دعاة المشرق نظرية يهودية تنسب الى القديس يوحنا الرسول، وأنهم لذلك نبذوا دين القديس بطرس وانقلبوا يوحنيين. وترجع هذه النظرية الى رواية ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر في كتابين عن فرسان المعبد أصدرتهما جمعية تسمى « جمعية المعبد » تدعي أنها تنتسب مباشرة الى جمعية المعبد الاولى. وقد جاء في هذين السفرين أن جمعية المعبد لم تنحل قط بل وجدت على كر العصور منذ أيام جاك دي مولاي الذي اختار قبل مصرعه جاك دي لارميني أستاذاً أعظم مكانه، وان الاساتذة العظام تعاقبوا دون انقطاع من ذلك الحين حتى

نهاية القرن الثامن عشر . ثم انحلت الجمعية مدى أعوام قليلة ، ولكنها أعيدت ثانية في سنة ١٨٠٤ برياسة أستاذ أعظم هو فابري بالابرا . ووردت في أحد السفرين صورة وثيقة استخرجت من محفوظات الجمعية السرية تصف أصل الجمعية وتقرر أن هوك دي بايان أول أستاذ أعظم للفرسان قد تلقى في سنة ١١١٨ أي عام انشاء الجمعية نظرية « الكنيسة النصرانية الاولى » التي ينتسب حبرها الاكبر مباشرة الى القديس يوحنا الرسول . ويقول فابري بالابرا في كتابه عن الفرسان أن نظرية الفرسان السرية كانت بلا ريب تخالف تعاليم الكنيسة الرومانية بحيث يجب أن ننسب نشاط البابوية في مطاردة الفرسان الى هذا السبب ويروى عن الجمعية ما يأتي :

« في سنة ١٣٠٧ أخفى الفرسان كتبهم ووثائقهم السرية عن السلطات فأودعت في مخابىء أمينة حتى هذا العصر (أوائل القرن التاسع عشر) . وقد غدونا اليوم على يقين من أن الفرسان كانوا يجوزون عدة اختبارات دينيـة وأخلاقيـة قبل أن يصلوا الى مراتب الالتحاق المختلفة ، فمثلا قد يؤمر المبتدىء أن يطأ الصليب او يعبد الصنم بحيث يعدم اذا فعل ، فاذا استسلم الى الرعب الذي أريد أن يلقى في نفسه اعتبر غير اهل لان يرقى الى المراتب العليا ، وفي وسعنا أن نتصور من ذلك كيف أن بشراً أضعف أو أدنى خلقاً من أن يجوزوا هـذه التجارب قد اتهموا الفرسان بارتكاب الفعال الشنيعة واعتناق التعالم الخرافية »

ومهما كان لون الالحاد الذي اصطبغ به مذهب جمعية المعبد ، فلا ريب انها كانت جمعية هدم تعمل في الخفاء على سحق المعتقدات الدينية من أساسها، وذلك برغم الفروق الدينية التي نشأت فيها، ورغم الصبغة الدينية التي انتحلتها في المبدأ . وبينما كان الاسماعيلية في المشرق يعملون على تحطيم تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية ، كان فرسان المعبد في الغرب يعملون على تحطيم تعاليم النصرانية ، ومحو رسومها

القسم الاول

(١) تطور الهدم والالحاد . قيام الالبيين دعاة الالحاد. مراتبهم ومبادئهم . أصلهم وذيوع دعوتهم . نشاط الكنيسة الى مطاردتهم (٢) تعاليم الالبيين وشعائرهم . القداس الاسود (٣) عبادة الشيطان أو السحر الاسود . الصراع بين دعاته وبين الكنيسة (٤) جيل دي رتز . تحالفه مع السحرة . مراسلته للشيطان . جرائمه . محاكمته واعدامه (٥) انتظام السحرة الى طائفة . ذيوع الخفاء . مطاردة السحرة . نظرية السحر (٦) اصل دعوة الخفاء . اليهود والدعوات الهدامة . مدرسة اسحاق لوريا . اليهود أقطاب السحر . اتهامهم بالشعائر الدموية . التوسل الى الشيطان فكرة يهودية (٧) طور جديد لدعوة الخفاء . جمعية الصليب الوردي . أصلها وقصة نشأتها . الاخ روز نكرويتس . قوانين الصليب الوردي (٨) فلسفة الصليب الوردي. العلاقة بينها وبين جمعية الفرسان . علم الصليب الوردي . نزعتها الروحية وغايتها الهدامة

— ١ —

القداس الاسود

١ ـ لم تخمد دعوة الهدم بمطاردة الفرسان وحل جماعاتهم ، ولكنها نفذت في الواقع الى أعماق البيئات المظلمة في مختلف الدول الاوربية ، واتخذت مبادىء الالحاد والثورة على الدين أطواراً جديدة . ونهضت طوائف سرية أخرى في عهد الفرسان أنفسهم لبث الدعوة الهادمة والعمل على تقويض النصرانية ومبادئها الدينية والاخلاقية

اتخذ هذا التطور شكلا واضحاً في أواخر القرن الثاني عشر حيث ظهرت في جنوب أوربا وفي غربها جماعات كثيرة ملحدة ، واجتمعت هذه الحركة المشتتة في جنوب فرنسا تحت لواء جمعية جديدة تعرف بالالبيين « Albigenses » نسبة الى البي احدى المدن التي كان للجمعية فيها مركز كبير . وكان مركزها العام في مدينة تولوز . وكان الالبيون نصارى في الظاهر غير أنهم كانوا في الواقع جمعية ثورية هادمة تعتنق في الخفاء تعاليم المانوية والثنوية ، وتنقسم طبقاً لنظم الجمعيات السرية الى مراتب مختلفة ، تضم الاولى جماعة المنتهين أو « الكمل » ، وقد كانوا فئة قليلة يتظاهرون بالزهد والتقشف ولا يأكلون اللحم ، ويمقتون الحلف والكذب ، وكانوا موضع الاجلال العميق

والخضوع الاعمى من أبناء المرتبة الثانية وهم « المؤمنون » . وقد كان بسواد الجمعية يعتنقون كل رذيلة ، ويحلون السلب والزنا والحنث ، ويعتبرون الزواج فسقاً ، ويحلون معاشرة المحارم وغيرها من صنوف الأثم . بيد انهم لم ينفذوا الى اسرار الجمعية وتعاليمها الخفية وقد كان علمها قاصراً على المنتهين

وأصل الالبيين غامض جداً ولكن المرجح انهم فريق الكاتاريين ، وهم طائفة إلحاد كبيرة ظهرت في بلغاريا وشرق الادرياتيك في القرن الثاني عشر ، واشتدت دعوتها وذاعت في أنحاء كثيرة ، وكان يجتمع تحت لوائها جموع شتى من الوثنيين والملحدين وأحرار المفكرين والسحرة . غير أنها لبثت مشتتة لا تجمعها حركة عامة . فلما قام الالبيون في جنوب فرنسا بدعوة الالحاد والهدم الفت مهاداً خصيبة في لانجدوك بين الاشراف والسادة . وكان سكان هذا الاقليم حينئذ مزيجاً من القوط والغاليين والرومانيين والساميين ، وكانوا ينزعون الى الثورة دائماً تارة على الحكام وأخرى على أحبار الكنيسة ، فاعتنق الدعوة الجديدة كل ناقم وكل مضطهد ، وهرع الى لوائها فلول الملاحدة والوثنيين والسحرة . وقامت على قول ميشيليه عصبة من كل اولئك الذين يسعون الى الظلام ، ويعربون عن سخطهم بالتدنيس والالحاد والجريمة ، لتحقق قبل كل شيء غرضاً اجتماعياً ، فكانت عصبة الثائرين والمضطهدين . واذا كانت قد اتخذت صبغة الدين الجديد ، فذلك لان الكنيسة كانت حينئذ تحكم المجتمع ، ولان الذي قام بالدعوة حزب قوي يعمل باسم الدين

اجتاحت الدعوة الجديدة جنوب فرنسا بسرعة ، وأصابت تعاليم الكنيسة بضربات شديدة ، ومال السادة والفرسان الى صنوف الاباحة التي بثها الالبيون ، فانتشر تعدد الزوجات والتسري ، واجتاح الفجور معظم الطبقات ، وانحلت الخلال والاخلاق ، وسحقت سيادة الكنيسة وهيبتها . وارتاع البابا انوسان الثالث لذلك الخطر الداهم فدفع سيمون دي مونفور الى محاربة الالبيين ، واضطرمت في الجنوب حرب صليبية في فاتحة القرن الثالث عشر ، مزق فيها الالبيون بعد معارك طاحنة وهلكت زهرة الفروسية والسادة في الجنوب

٢ ـ وكانت خطة الالبيين في بث الدعوة تدور حول فكرة حديثة هي محاربة مبادىء الاخلاق والسلطة بالانضواء تحت لواء الشيطان ، والشيطان في تعاليمهم هو خصم الله الذي يسيطر على جميع النظم الاجتماعية التي ترهقهم وتعصف بحرياتهم ، ومن ثم كان للشيطان عبادة وكان له قداس ، وكان للملاحدة والسحرة اجتماعات خفية

كاجتماعات النصارى للصلاة والتعبد . وهي فكرة تستند الى تعاليم المانوية القائلة بأن الخير والشر متكافئان في القدرة وان الشيطان كالله خالد قاهر . وهكذا أنشأ الالبيون رسوماً جديدة للدين والعبادة ، وبدىء باقامة ذلك القداس الغريب الذي يعرف « بالقداس الأسود » لاعتباره خروجاً على شعائر الكثلكة . وكان دعاة الالبية يقيمونه ليلا في الغابات الكثيفة او الوديان السحيقة أو فوق رءوس الجبال ، فتهرع اليه تلاميذهم من كل صوب ما بين سحرة وكفرة وأشرار وخوارج ، يعبدون الشيطان ويسبون المسيح ، ويغرقون في صنوف الفجور والاباحة . وكانوا يقتفون أثر الاسماعيلية فيسقون المصلين المخدر قبل القداس ، ويوهمونهم بأن ما رأوه أثناء سباتهم من الاحلام اللذيذة والتصورات الخلابة انما رأوه في عالم الشيطان وفي جنته التي تفتح أبوابها للمخلصين من عباده

كانت الدعوة الالبية ثورة خطيرة على تعاليم النصرانية السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، سيما وقد لبثت رغم سحق الالبيين مستقى لتطورات جديدة من فورة الالحاد والهدم

— ٢ —

٣ ـ أمعنت الكنيسة في المطاردة ، ولكن الثورة على النصرانية لبثت تضطرم في الخفاء واتخذت التعاليم الثنوية في أوائل القرن الرابع عشر وجهة جديدة ، هي ايثار الشر وعبادة الشيطان ، او التوسل بالقوى الشريرة الخفية على محاربة القوى الخيرية ، وبالظلمات على النور ، أو بعبارة أخرى السحر الاسود . وقد كان التوسل بالخفاء والظلمات معروفاً منذ العصور الغابرة ، وللسحر دولة ترجع الى أقدم المجتمعات الانسانية سواء في المشرق والمغرب ، ولكن حركة « السحر الاسود » التي ظهرت في خاتمة القرون الوسطى واجتاحت كل المجتمعات الاوربية كانت دعوة منظمة ، وثورة واسعة النطاق على سلطة الكنيسة وتعاليم النصرانية وان بدت في ظاهرها طائفة من الحركات المحلية المتقطعة

وفكرة هذا المذهب هي التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين ، وسحق أقدس رسومه ورموزه ، وهو ما يعنيه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية

والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له ، والوجهة الى غير الله كفر »

والواقع أن ريحاً عامة شاملة من شغف الخفاء لبثت نحو ثلاثة قرون تعبث بعقلية المجتمعات الاوربية ، وتمعن في تحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنسية ، ولبثت الكنيسة من جانبها تطارد هذه الحركة بما وسعت من قوة وعزم ، تارة بانشاء الجماعات الدينية الرجعية ، وأخرى بواسطة مجالس التحقيق ، وسنأتي بايجاز على سيرة هذه المعركة التي تملأ صحيفة من أغرب صحف العصور الوسطى

٤ ـ كان إمام المذهب الجديد وأكبر دعاته الماريشال جيل دي رتز ، وهو فارس فرنسي شهير وُلد في مشكول من أعمال بريتانيا (فرنسا) في سنة ١٤٠٤ ، وخاض غمار المعارك الداخلية التي كانت تضطرم حينئذ بين الامراء الاقطاعيين ، ثم تولى القيادة في جيش جان دارك ، ورفع الى رتبة الماريشال ، وكان « للعذراء » عضداً ومرشداً حتى هزمت وأسرت وأحرقت . فارتد حينئذ الى ضياعه الشاسعة في بريتانيا ، وأطلق العنان لاهوائه وبذخه حتى بدد معظم ثروته وهو في شرخ شبابه . ثم فكر في التماس المال من طريق السيمياء ، واستقدم الكيمائيين والسحرة من كل فج ولا سيما من ألمانيا وايطاليا حيث كان للكيمياء والسحر شأن ، وكان يظهر أعظم الكيمائيين والسحرة ، حتى غدا قصره معهداً للسيمياء والشعوذة ، ودفع به السحرة الى خوض غمار حياة غريبة من التماس الوصول الى عالم الغيب ، وتبديد الخفاء ، والتوسل بالشيطان . وكان الماريشال في المبدأ نصرانياً مخلصاً غير أنه ارتد عن دينه بتأثير حياته الجديدة التي تفرغ اليها بجسمه وروحه ، وحمله أصحابه السحرة على أن يلتمس محالفة الشيطان بالمراسلة ، فوجه اليه نداء وقعه بدمه يلتمس فيه منه « العلم والقوة والمال » متعهداً في نظير ذلك بالقيام بكل ما يطلبه اليه سوى الحياة والروح ، وألقى الرسالة في مرج من مروج مشكول ، ولكن الشيطان لم يظهر ولم يجب هذا النداء رغم التضرعات التي سيقت اليه والصلوات التي أقيمت لذكره

عندئذ ارتد جيل دي رتز الى حياة اثم رائعة ، وعكف على استعطاف الشيطان والتوسل اليه بأشنع ضروب الجريمة ، فاسرف في اقامة الرسوم والشعائر السوداء ، وامعن في الفسق وغيره من صنوف الاباحة والرذيلة ، وتدرج من ذلك الى احياء الشعائر الوثنية واراقة الدماء البشرية، فبث أعوانه في جميع الانحاء يخطفون ويسرقون الاطفال عشرات ومئات من بنين وبنات، وكان الماريشال يتولى بنفسه تعذيب الفرائس

وارهاقها بأروع الاساليب ، وقد اختفى على هذا النحو مئات عدة من الاطفال في الانحاء المجاورة ما بين سنة ١٤٣٢ وسنة ١٤٤٠ . وضج أهل هذه الانحاء واستغاثوا من ذلك الاجرام الشنيع بالسلطات الكنسية والمدنية. ووصلت الى أسقف نانت عدة بلاغات سرية عما يرتكبه جيل دي رتز من العبث والفجور وسفك الدماء وثبتت له الحقيقة الرائعة من تحرياته السرية ، فسعى الملك الى البابا في اصدار قرار كنسي بان جيل دي رتز « قد احتوى عليه الروح الخبيث ونسي سلامه » ، وانتهى الامر بالقبض



جيل دي لافل ـ ماريشال دي رتز

على الماريشال في قصره في مشكول وتقديمه الى محكمة دينية مدنية متهما بالكفر والردة والاتصال بالشياطين ، وقتل الاطفال . وبدأت هذه المحاكمة الشهيرة في اكتوبر سنة ١٤٤٠ فانكر الماريشال بادىء بدء ما نسب اليه ، وكان ثبت الاتهام طويلا اسند فيه الى الماريشال انتهاك حرمة الدين ، ومحاولة الاتصال بالشيطان ، وقتل الاطفال تقرباً اليه ، مقروناً بجرائم « تدنس الهواء الذي يستنشق » والفجور ، وتدنيس القداس وغيره من رسوم الكنيسة ، وقراءة الكتب المحرمة وغيرها ، ووصف الماريشال بأنه كافر، فاسق ، أخ للارواح الخبيثة ، مشعوذ ، قاتل للاطفال ، مزاول للسحر ، مرتد ، وثني الى غير ذلك ، وأصدرت المحكمة حكمها بادانة الماريشال،

ثار الماريشال لذلك بادىء بدء غير انه عاد بعد ذلك بيومين خاضعاً ذليلا باكياً واعترف بجرائمه اعترافاً تاماً . « وكان الاعتراف هائلا مروعاً حتى ان القضاة والكهنة الذين اعتادوا الوقوف على أشنع الاسرار والجرائم ارتجفوا رعباً لتلك الامور التي لم يسمع بمثلها ورسموا اشارة الصليب » ثم صدر حكم الهيئة الدينية بنفي الماريشال من الكنيسة ، وصدر حكم الهيئة المدنية في نفس اليوم بشنقه واحراقه ، فقابل مصيره بشجاعة وثبات

٥ ـ والظاهر ان طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السيمياء والسحر قد أنشئت في ذلك العصر حوالي سنة ١٤٦٠ ، حيث اندس السحرة والمشعوذون الى جميع المجتمعات الاوربية وعهد في معظم الدول الى القضاء المدني بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة لاستفحال أمرها واشتداد عيثها . وكانت ميول العصر وتقاليده ترمي الى أن تلحق المخترعين والكيمائيين وغيرهم من النابهين بطائفة السحرة وأخوة الشيطان ، وكان العلم يعتبر من العناصر الشيطانية حتى أن معظم العلماء والفلاسفة الذين كانت أفهامهم تسمو على أفهام هذا العصر كانوا معرضين دائماً للريب والشبهات

ومنذ فاتحة القرن السادس عشر هبت على جميع المجتمعات الاوربية ريح عامة شاملة من دعوة الخفاء ، وظهر السحرة في كل مكان ، ونشطوا الى بث تعاليمهم ومعتقداتهم بين العامة فضلا عن الخاصة والسادة ، فنشطت السلطات الدينية والمدنية في مختلف الدول الى مطاردتهم اتقاء لما ينالها بسبب انتشار تعاليمهم من أسباب الانحلال والتقويض ، ففي سنة ١٥١٥ أحرق في جنيف خمسمائة ساحر في ثلاثة أشهر فقط ، وأحرق في بامبرج ستمائة ، وفي فرتمبورج ثمانمائة ، وقضى برلمان تولوز باحراق أربعمائة في حكم واحد . وكانت معظم طوائف السحرة في فرنسا تجتمع في الاقاليم النائية مثل غسقونية ونورماندي والفلاندر ودوفينه . ويعتقد جان بودان واضع سيرة السحرة أن عددهم كان يبلغ في ذلك الحين في مختلف الامم زهاء مليونين

وكانت فكرة السحر الجوهرية في هاتيك العصور هي محالفة الشيطان . وهذا الميثاق إما صريح او ضمني ، وكل من قام بأعمال شيطانية يعتبر أنه قبل سيادة الشيطان . ونتيجة هذا الميثاق انكار التنصير إذ الشيطان على قولهم يمحو آثار الرسوم القدسية ويضع مكانها طابعه الخاص . ويجب على العضو طبقاً لهذا الميثاق أن يشهد الشعائر الرسمية والقداس السود وأن يشترك في ارتكاب جرائم التدنيس والقربان الدموي بسفك الدماء البشرية وغيرها من صنوف الفجور والاباحة

٦ ـ وأصل هذه الدعوة السرية الى الخفاء والسحر محوط بالغموض ، وان لم

يك ثمة شك في غايتها الجوهرية وهي هدم تعاليم النصرانية الروحية ومبادئها الاخلاقية، وتقويض النظم الاجتماعية من أسسها . فيرى بعض الباحثين مثل ديشان [1] ان هذه الدعوة ترجع الى تعاليم الكابالا السرية وهي التعاليم العبرية في أمور الخفاء ومدارك الغيب . ويضيف البعض الآخر الى ذلك أن هذه الدعوة التي اجتاحت أوربا مدى قرون ثلاثة لم تكن سوى أثر من الجهود السرية التي يقال ان اليهود يبذلونها منذظهور النصرانية والاسلام في سبيل هدمهما انتقاماً لدينهم . ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات الهدم الاسلامية ولا سيما دعوة عبد الله بن ميمون التي أسفرت كما رأينا عن انفجار أعظم حركات هادمة عرفها الاسلام ، فيقولون ان اليهود هم الذين نظموا مقاومة الاسلام منذ ظهوره وحشدوا الدعاة لافساد تعاليمه ، وان ميمون بن ديصان وولده عبد الله كانا يعملان على بث مبادئهما السرية في الالحاد والهدم بتحريض وتعضيد من الدعاة اليهود [2] . والواقع ان نفوذ اليهود استفحل في اوربا في القرن الخامس عشر وغدوا قوة حقيقية في اسبانيا والبرتغال وايطاليا ، ونفذوا في منتصف القرن الخامس عشر الى دوائر فيرنتزا العلمية التي كانت زاهرة في ذلك الحين ، وأسس علامتهم اسحاق لوريا المدرسة الكابالية الحديثة في ايطاليا في منتصف القرن السادس عشر ، وصيغت تعاليمه الى منهج عملي للاتصال بعالم الغيب وكتابة الطلاسم ، وشعوذة الارقام والحروف . وعلى الجملة فقد كان اليهود أساتذة السحر وأقطابه في القرون الوسطى ، واليهم ينسب ڤولتير في قصته « هنرياد » الشعائر الدموية التي أتينا على ذكرها ويصفها في قطع شعرية بليغة منها :

في شبح الليل ، تحت قبو مظلم
يسود السكون اجتماعهم الدنس
وعلى ضوء مصباح سحري شاحب
يقام هيكل دنس فوق قبر
وقد نظمت السيوف فوق هذه الجدران الحالكة
تغمس أطرافها في أوعية من الدم
هي آنية منفرة خفاياهم المرعب
وراهب هذا المعبد احد أولئك العبريين
الذين يفرون من اضطهاد الارض والناس كلهم
يجرون بؤسهم العميق من جدار الى جدار

(١) Deschamps : Les sociétés sécrètes et la société

(٢) قد أشار ابن الاثير الى ذلك الرأي في كلامه عن اصل الدولة العلوية بافريقية (ج ٨ ص ٩)

وقد ملأوا منذ بعيد كل الامم
بطائفة عتيقة من الاساطير والخرافات . . . الخ

ويقول ڤولتير : « كان اليهود هم الذين يلتجىء اليهم عادة في تأدية الشؤون السحرية . وهذا الوهم القديم يرجع الى أسرار الكابالا التي يزعم اليهود أنهم وحدهم يملكون أسرارها . وكانت كاترين دي مديتشي والماريشال دانكر وكثيرون غيرهما يستخدمون اليهود من اجل هذا الامتياز » . وتهمة السحر الاسود هذه تنسب الى اليهود منذ أقدم العصور ، وكثيراً ما اتهموا بتسميم الآبار ، وارتكاب القتل اجراء للرسوم ، واستخدام الآنية الكنسية المسروقة لاعمال التدنيس . واذا كانت تشوب هذه الروايات مبالغة يمليها التحامل القومي ووهم القرون الوسطى ، فليس من ريب في أن اليهود قد جعلوا انفسهم موضعاً للريب والشبه بالانهماك في مزاولة فنون السحر . وأكثر من ذلك ان التوسل الى الشياطين فكرة يهودية في الاصل ، بل هو من تقاليد اليهود ومعتقداتهم القومية ، فقد ورد في التلمود مثلا : « اذا استطاعت العين أن تبصر الشياطين التي تعمر الكون كله كانت الحياة ضرباً من المستحيل ، ذلك لان الشياطين أكثر منا عدداً ، وهم يحيطون بنا من كل صوب ، ولكل منا على يساره الف شيطان ، وعلى يمينه عشرة آلاف » ويعدد التلمود فوق ذلك الطرق التي يستطيع الانسان ان يبصر بها الشياطين وغيرها من ضروب التخريف والوهم

ولا ريب ان السحر كان قوة عظيمة في مثل هاتيك العصور التي كان يعصف فيها الجهل المطبق بعقلية المجتمع ، وكان للخرافات والتقاليد الدينية السخيفة على النفوس سلطان قاهر . وكان التماس السحرة لعالم الخفاء والغيب فتنة خلابة للذهن البشري ، ومن ثم كان نفوذهم ، وكان انتشار تعاليمهم وطرقهم في جميع الاقطار

هذا وسنعنى في فصل قادم بالطور الجديد الذي تطورت اليه دعوة الخفاء والسحر في القرنين السابع عشر والثامن عشر وما كان له من اثر في مجتمعات هذه العصور

— ٣ —

جمعية الصليب الوردي

أو صليب الندى

٧ ـ رأينا دعوة الخفاء في طورها السابق تتخذ صبغة الشعوذة الدينية وتستند الى الوسائل النفسية والروحية ، ولكن حركة أخرى تستند الى نوع آخر من

الاساليب والوسائل الخفية كانت تنتظم في ذلك الحين ، وتعنى بناحية في المباحث تميل نوعاً الى الصبغة العلمية فتحاول انتزاع أسرار الطبيعة ، بدرس العناصر وتذليلها وتحليل المعادن ، وتركيب الجواهر والعقاقير وغيرها . وكان قوام هذه الحركة جمعية سرية تعرف بجمعية الصليب الاحمر او صليب الندى Die Rosenkreuzer ، ظهرت لاول مرة في المانيا في أوائل القرن السادس عشر . غير أن أصلها كمعظم الجمعيات السرية غامض جداً الى حد أن البعض ينكر وجودها التاريخي .

والظاهر أنها قامت على دعامتين الاولى تعاليم ثيوفراستوس فون هوهنهايم الذي يعرف باسم بارسيلسوس ، وهو ولد طبيب ألماني وُلد حوالي سنة ١٤٩٣ ، وتجول في المشرق أعواماً طويلة ، وقيل انه وقف هنالك على تعاليم سرية نظمها بعد الى طريقة لمعالجة الامراض . وقد استقى بارسيلسوس بلا ريب معارفه هذه من تعاليم الكابالا السرية ، بيد أنه لم يكن من تلاميذها ، ولم يكن متآمراً أو مشعوذاً بل كان عالماً نابهاً ومفكراً مستقلا . والثانية من تعاليم الكابالا نفسها ، وقد كان اليهود أبرع السيمائيين في هذه العصور وكانت المدرسة الكابالية عندئذ في ذروة الازدهار

وقد رويت سيرة جمعية الصليب الوردي لاول مرة في عدة نشرات صغيرة ظهرت في أوائل القرن السابع عشر وكانت أساساً لكل رواية كتبت عن هذه الجمعية حتى عصرنا . واليك ملخص القصة التي أتت عليها هذه النشرات تاريخاً لاصل جمعية الصليب الوردي

« ان ابانا طيب الذكر ، رفيع الفهم ، وأخانا ك . ر . اي كرستيان روزنكرويتس[1] هو الماني ، وهو رأس جمعيتنا ومؤسسها ، وُلد سنة ١٣٧٨ ، وفي سن السادسة عشرة سافر الى المشرق مع الاخ ب . ا . ل . الذي اعتزم زيارة البقاع المقدسة . فلما وصلا الى قبرص توفي الاخ ب . ا . ل وعلى ذلك لم يصل قط الى بيت المقدس . أما الاخ ك . ر . فقد سمع ببعض الحكماء في دمشق من بلاد العرب ، وبالعجائب العظيمة التي يقومون بها ، فسافر بمفرده الى دمشق وهنالك استقبله الحكماء ، وعكف على درس الطبيعة والرياضة ، وعلى ترجمة كتاب «م» الى اللاتينية . ثم سافر الى مصر بعد ذلك بأعوام ثلاثة ، ومنها سافر الى فاس حيث تعرف بطائفة من الناس

(١) روزنكرويتس Rosenkreuz هي كلمة ألمانية مركبة معناها الصليب الوردي ، وقد يكون مقطعها الاول مشتقاً من أصل لاتيني هو ros ومعناه الندى ، ومن ثم سميت الجمعية بصليب الندى

تعرف « بالاولين » فتلقى عنهم كثيراً من الاسرار . وكثيراً ما كان يقول ان سحر هذه الطائفة لم يكن نقياً ، وان تعاليمهم السرية كانت ممزوجة بدينهم ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجني من تعاليمهم خير الفوائد . وبعد عامين غادر الاخ ك . ر . مدينة فاس وأبحر الى اسبانيا ومعه تحف ثمينة عديدة . وهنالك اتصل بالحكماء وباحثهم ، واذ كان لا يضن بنشر شيء من أسراره ومعارفه فقد بين كيف أنه يمكن انشاء جمعية في أوربا تستطيع أن تجني من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ماتستطيع أن تفيض منه على الملوك ما يسد حاجاتهم الضرورية وأغراضهم المشروعة . . »

ثم عاد كرستيان روزنكرويتس الى المانيا حيث « لا تدعو الحاجة اليوم الى علماء أو سحرة أو كاباليين ، او اطباء او فلاسفة » وهنالك بنى بنفسه منزلا صالحاً أنيقاً « كتب فيه رحلته وفلسفته وأدمجهما معاً في أثر خالد حق » . وبعد خمسة أعوام قضاها في تأمل وتفكر عادت الى ذهنه فكرة الاصلاح المنشودة .فاختار بعض اخصائه مثل الاخ ج . ف . والاخ ي . ا. والاخ ي . و . وكان الاخير « عظيم الخبرة واسع الاطلاع على أسرار الكابالا كما يؤيد ذلك كتابه » ليؤلفوا معاً جمعية من الدعاة، « وعلى هذا النحو بدأت جمعية الصليب الوردي». ثم ضم اليها بعد ذلك خمسة اخوة أخر كلهم ألمان ماعدا الاخ ي . ا . وبنى الثمانية بناءها الجديد المعروف « بالروح القدس » ، وأبرموا الاتفاق الآتي :

أولا ـ يجب ألا يدعي أحدهم شيئاً سوى شفاء المرضى وذلك دون مقابل

ثانياً ـ يجب ألا يرغم أحد من الذرية على ارتداء زي معين من الملابس ، بل يترك ليختار زي بلده

ثالثاً ـ يجب أن يجتمعوا كل عام في يوم « س » في منزل « الروح القدس » أو يبين الغائب سبب غيابه

رابعاً ـ يجب أن يبحث كل أخ عن شخص فاضل يخلفه عند وفاته

خامساً ـ يجب أن تكون كلمة « ك . ر . » هي خاتمهم وطابعهم وشعارهم

سادساً ـ يجب أن تبقى الجمعية سرية لمدة مائة عام

ثم توفي الاخ كرستيان روزنكرويتس ، ولكن بقي تاريخ وفاته ومكانها والبلد الذي توفي فيه سراً لا يعرف . والتاريخ المجمع عليه هو سنة ١٤٨٤ . وفي سنة ١٦٠٤ اكتشف الاخوة الذين كانت تتألف منهم عندئذ الهيئة العليا للجمعية باباً كتب عليه بأحرف كبيرة ما يأتي : « يفتح بعد مائة وعشرين سنة » ، ففتحوا الباب ، فوجدوا

قبواً قد مدد فيه جسم روزنكرويتس تحت لوحة نحاسية ، وكان الجسم سليماً صحيحاً مشتملا على جميع ملابسه وحليه ، رافعاً بيده الخاتم « ا » الذي هو اكبر ذخائرنا بعد التوراة ، والى جانبه عدد من الكتب بينها كتاب بارسيلسوس الذي لم يكن عضواً في جمعيتنا

والآن يعرف الاخوة جميعاً أن سوف يحدث بعد حين « اصلاح عام في الامور الروحية والبشرية »

ويصرح الاخوة في وثائقهم هذه أنهم يؤمنون بالنصرانية ، ويقولون : ان فلسفتنا ليست بدعة ، ولكنها تتفق مع ما تعلمه آدم بعد سقطته ، وما استعمله موسى وسليمان. . . ، وهي التي استطاع افلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم أن يقفوا على أسرارها ، والتي نبغ في معرفتها ابراهيم وموسى وسليمان ، وخصوصاً فيما تقول به « التوراة » ذلك الكتاب العجيب

٨ ـ والظاهر مما تقدم أن دعوة الصليب الوردي كانت طبقا لهذه الوثائق مزيجاً من التقاليد السرية القديمة التي تناقلها الاحبار من فلاسفة اليونان، ومن أقطاب الكابالا اليهودية . على ان الرواية المتقدمة لا تستند الى أساس تاريخي ، بل يرى البعض أنها خرافة محضة وان جمعية الصليب الوردي لم توجد قط ، وان كل ما ورد في النشرات كان خيالا ابتدعه شخص يدعى فالنتين اندريا ليكون حلماً يعمل على تحقيقه . ويرى البعض الآخر ومنهم ميرابو الذي درس تاريخ الجمعيات السرية الالمانية أثناء إقامته في المانيا وكان بناءً حراً وعضواً في « الشعلة البافارية » ان جمعية الصليب الوردي لم تكن سوى جمعية فرسان المعبد القديمة التي لبثت قائمة في الخفاء باسم جديد . ويقول دي كانتلو في كتابه عن الفرق والجمعيات السرية ما يأتي: « ان الفرسان الذين تركوا الجمعية (جمعية المعبد) في فرنسا ، لاذوا بالاختفاء وانشأوا جمعية الكوكب الوضاء والصليب الوردي التي انتشرت في القرن الخامس عشر في بوهميا وسيليزيا . وكان كل كبير من دعاة هذه الجمعية يلزم ان يحمل طول حياته صليباً احمر وأن يتلو في كل يوم صلاة القديس برنار » ويقول ايكر في كتابه عن البناء الحر : ان رسوم جمعية الصليب الوردي ورموزها واسماءها استعيرت كلها من الفرسان ، وان الجمعية كانت تنقسم الى سبع مراتب على عدد أيام الخلق السبعة مما يدل على انها كانت ترمي الى كشف الخفاء ، والبحث في اصل الخليقة وأسرار الطبيعة . ولكن آخرين ينكرون هذه العلاقة بين فرسان المعبد وجمعية الصليب الوردي لان الفرسان لم يكونوا كيمائيين ، ولم تكن لهم مزاعم علمية

بل كانوا طائفة سرية دينية خارجة على النصرانية . اما اخوة الصليب الوردي فكانوا قبل كل شيء جماعة علمية راقية . والظاهر أن جمعيتهم لم تكن في احكام النظام ، والتدرج في المراتب ، كجمعية الفرسان أو جمعية البنائين الاحرار ، وانهم كانوا على الارجح أفراداً متفوقين يعنون بالخفاء والمباحث الطبيعية . أما التمسك بأذيال الكتمان فقد كان محتوماً في عصر كان البحث العلمي يقرن فيه بالسحر وينظر الى العلماء والمخترعين بعين الظنون والريب

على ان علم اخوان الصليب الوردي موضع للريب ايضاً ، فلم يثبت انهم وفقوا الى شيء من الاختراعات العلمية أو فازوا بحل معضلات السيمياء وتحويل المعادن السفلى الى المعادن الكريمة وان كان الثابت أنهم كانوا كيمائيين ، وكانت السيمياء شغلهم الشاغل . وفي ذلك يقول وايت في كتابه عنهم : « اعتدنا ان نعتبر أعضاء الصليب الوردي بشراً ذوي مواهب راقية . وقوات خارقة ، وانهم سادة الطبيعة وملوك العالم الفكري ، . . . ولكنهم يعترفون في وثائقهم أنهم ليسوا الا شعبة من الكفر اللوثري، تعترف بالسيادة الروحية لامير سياسي ، وتعتبر البابا عدواً للنصرانية ، ونراهم يضطرمون بنفس الشهوات ، ويعتنقون نفس الافكار التي كانت لمن حولهم من الناس ؛ ان الصوت الذي يخاطبنا من وراء القناع الخفي لجمعية الصليب الوردي لا يأتي من عرش عقلي . . . »

أما نزعة الصليب الوردي الروحية فقد كانت عداءً للنصرانية وانكاراً لصفات المسيح . وذكر كاتب قديم : « ان الجمعية كانت عصابة من اليهود والكاباليين العبريين يرى مذهبهم أن كل الاشياء تختفي في ظل جلال الحقيقة او في ظل الخفاء المقدس » وذكر آخر : « ان الشيطان كان إمامها ، ومبادؤها انكار الله ، والطعن في مبدأ التثليث وتحقير العذراء وجميع القديسين » ، وتوجه فوق ذلك الى الجمعية تهم أخرى كالتحالف مع الشيطان،وقتل الاطفال ، وتركيب السموم،والرقص مع الشياطين وغيرها

وعلى أي حال فانا نرى مما تقدم أن جمعية الصليب الوردي لم تكن سوى شعبة من شعب الثورة على النصرانية ، وثمرة لحركة الهدم الشاملة التي كانت تقصد الى سحق جميع المبادىء الدينية والاخلاقية في العصور الوسطى

(١) تطور أساليب الخفاء . شغف السيمياء والسموم. سانت كروا والمركيزة دي برانفلييه . جمعية السحرة والسيمائيين . انتماؤهم الى جمعية سرية رئيسية . مراتب هذه الجمعية ورسومها . من هم زعماؤها . العلاقة بينها وبين الصليب الوردي (٢) ذروة الخفاء . فردريك مسمر وجمعيته السرية (٣) اقطاب السحرة والافاقين . الكونت سان جرمان وجمعيته . مزاعمه وخرافاته . لاسكاريس . كاجليوسترو وجمعيته . السحرة الآخرون . من هم أولئك الدعاة (٤) الخفاء الحديث . حركة الروحيين

— ١ —

عصر السموم

١ ـ في منتصف القرن السابع عشر وصلت حركة الخفاء ذروتها ، وعصف بالمجتمع الاوربي وباء حق من الشعوذة وشغف الاحاطة بما وراء الطبيعة والغيب ، وذاع السحر في معظم الاقطار الاوربية ، وكثرت محاكمات السحرة من الجنسين واعدامهم . وقد رأينا أن حركات الخفاء المتقطعة التي كانت تقوم في مختلف البلدان ترجع في النهاية الى أصل واحد ودعوة عامة ، مصدرها الكابالا اليهودية على أرجح الآراء ، وان اليهود قصدوا الى هدم النصرانية من هذا السبيل . وفي منتصف القرن السابع عشر اتخذت الحركة طوراً جديداً أيضاً فمالت نحو أساليب جمعية الصليب الوردي . وظهر هذا التطور واضحاً في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر حيث اجتاحت المجتمعات الراقية حمى المباحث الطبيعية ، ومحاولة استخراج الذهب من المعادن المنحطة وخاصة صنع السموم والمخدرات والمركبات الغرامية . وقد لبثت الحركة قائمة في الخفاء حيناً تروع الناس بأسرارها وضحاياها حتى اكتشفت مأساة السموم الهائلة سنة ١٦٦٦ عقب موت الشفاليه دي سانت كروا والقبض على خليلته المركيزة دي برانفلييه . وكان سانت كروا من أبرع الكيمائيين في عصره ، وأمهرهم في تركيب السموم الخفية ، وكانت خليلته المركيزة دي برانفلييه امرأة هائلة تشغف

بحياة الجريمة أيما شغف فلبثت أعواماً تدبر مع خليلها سلسلة من الجرائم الهائلة ، وتجرب سمومه الخفية في أفراد أسرتها واحداً بعد الآخر حتى قتلت أباها وأخويها ، وكانت الفرائس تذهب واحدة فواحدة دون أن يخامر العدالة أدنى ريب في الحقيقة أو يهتدي الطب في ذلك الحين الى أي أثر للسم الخفي الذي كان يستعمل في ارتكاب الجريمة . وقد اكتشفت هذه الاسرار المروعة بطريق المصادفة عقب وفاة سانت كروا وعثور الشرطة بأوراقه وسمومه التي لم يهتد أحد الى تحليلها أو معرفة خواصها [١] .

وكان الاعتقاد بادىء بدء أن الامر يتعلق بمجرمين أفراد ، ولكن مباحث الشرطة أسفرت عن اكتشاف جمعية كبرى من السحرة والسمائيين تزاول السحر وصنع المركبات والمسحوقات المختلفة من سموم ومخدرات وغيرها ، وأذيعت عنها يومئذ أغرب الروايات فقيل انها تزاول عبادة الشيطان ، وتقريب الاطفال ، ومخاطبة الارواح والشياطين ، وتقيم القداس الاسود وغيره من رسوم الابليين . وبلغ عدد المتهمين في تلك القضية الشهيرة مائتين وستة وأربعين متهماً حكم بالاعدام على ستة وثلاثين منهم ، وكشفت تحقيقاتها عن مفاجآت غريبة فقد ظهر أن المتآمرين حاولوا مراراً أن يقتلوا الملك وولي العهد وكولبير ومدام دي لافاليير بواسطة السم ، وان كثيرين من الخاصة وعظماء البلاط يلجأون الى السحرة والمسممين للانتقام وقضاء الحاجات ، حتى قيل ان مدام دي مونتسبان خليلة الملك كانت تسعى الى استبقاء غرامه ووده باقامة القداس الاسود والاستعانة بلافوازان أشهر ساحرة في هذا العصر

والرأي المعاصر ان اولئك السحرة والمسممين لم يكونوا افراداً متفرقين يعملون مستقلين ، بل كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع في جميع الاقطار الاوربية . ذلك لان أساليبهم كانت مؤكدة وطرقهم في تنفيذ الجريمة محكمة سهلة تدلي بأنهم كانوا ينتمون اما مباشرة او بالواسطة الى جمعية اجرام كبرى تذلل الصعاب وتدرس الوسائل التي تسبغ على الجريمة مظاهر خادعة لا تثير الريب ، والخلاصة أنهم كانوا طائفة ، وكانوا مدرسة . وتقارن مدام لاتور في كتابها عن الاميرات والافاقات في عهد لويس الرابع عشر [٢] تلك الجمعية بعصابة مهربي المخدرات كالكوكائين وغيره من

---

(١) أتينا على تفاصيل هذه المأساة الغريبة في كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » الذي عنيت بنشره ادارة الهلال فلتراجع فيه

(٢) Th. Louis Latour, Princesses, Dames, et Aventurières du Règne de Louis XIV

السموم الاجتماعية ، وتقول ان مراتب هذه الجمعية كانت ثلاثاً : الاولى مرتبة الرؤساء وهم رجال متعلمون أذكياء درسوا الكيمياء والطبيعة وغيرهما من العلوم ، وهم مرشدون غير ظاهرين ولكن أقوياء ذوي نفوذ ، يمدون السحرة والعرافين بالقوة والنصح ، والثانية مرتبة السحرة الظاهرين الذين يعنون بالتجارب الخفية ، والرسوم المعقدة ، والحفلات المرعبة ، والثالثة جمهور النبلاء والسادة الذين يهرعون الى ابواب السحرة ويملأون جيوبهم بالذهب ثمناً للمخدرات والمسحوقات والمركبات الغرامية و السموم احياناً . وعلى ذلك يمكننا أن نضع لافوازان الساحرة الشهيرة في المرتبة الثانية ، فهي رغم شهرتها وغناها ونعيمها الباذخ لم تكن الا يداً تحركها تلك الجمعية الهائلة ، وسر نجاحها في مشاريعها الكبرى يرجع الى نصح زعمائها المفكرين من أعضاء هذه الجمعية

فمن كان اولئك الزعماء المفكرون ؟ ان أول من علم الشفاليه دي سانت كروا خليل المركيزة دي برانفليه تركيب السموم الخفية وأطلعه على خواصها وأسرارها هو كيماوي ايطالي شهير يدعى اكسيلي ، وقد التقيا سجينين في الباستيل وجمعت بينهما الشدة في أقبيته السحيقة [1] ، ولكن الذي علم اكسيلي من قبل ثم عني بتعليم الشفاليه بعد ذلك هو كيماوي بارع الماني أو سويسري يدعى جلازر ، وقد كان طبيباً وصيدلياً للملك وللدوق دورليان ، والظاهر أنه كان يتبع تعاليم بارسيلسوس ، ولعله فوق ذلك من تلاميذ الصليب الوردي ، ذلك لان الزعماء والمفكرين الذين كان المسمون يهتدون بنصحهم كانوا رجالا يحسنون درس الكيمياء والطبيعة ومعالجة الامراض ومنهم من كان يعنى بتحليل المعادن والسيمياء ، أو بالحري كانوا يقتفون خطوات الصليب الوردي . والخلاصة ان الجمعية السرية التي كانت تضم اولئك الكيمائيين البارعين والمسممين الاذكياء والسحرة المدربين ، كانت على الارجح ، شعبة من الصليب الوردي أو كانت هي بذاتها تطورت الى شكل جديد ، لان الجمعية الاولى التي أنشأها الاخوة لم تكن تعنى كثيراً بالسحر ، او تستخدم براعتها الكيمائية في الجريمة ، ولكن تلاميذها اللاحقين خرجوا على مبادئها الاولى ، ووجدوا في مجتمع القرن السابع عشر ، وفي رذائله وسيئاته ميداناً شاسعاً للتجارب والمشاريع السوداء التي كانت براعتهم في تركيب السموم الخفية انفذ الوسائل لتحقيقها

(١) نحيل القارىء هنا ايضاً الى كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » حيث فصلنا ذلك في الفصل الذي كتبناه عن « مأساة السموم »

— ٢ —

ذروة الخفاء

٢ – في القرن الثامن عشر برز الخفاء في ثوب آخر ، ووصلت الجمعيات السرية ذروتها من الانتشار والتسلط على الاذهان ، وقد كان هذا القرن فاتحة الثورة العلمية التي أخذت تمعن في تحطيم القديم بسائر نظمه وتقاليده ، ولكن النهضة العلمية كانت في المهد ، وكان الغموض يحيق بكثير من نواحيها ، فكانت دعوة الخفاء والشعوذة تستغل هذا الغموض وتعنى باستجلائه وتزعم انها نفذت الى ظلماته ، وكانت العقول الساذجة تخضع لمؤثراتها وتتعلق بمزاعمها . هذا الطور الجديد الذي استحالت اليه دعوة الخفاء كان يعنى بالعلم النادر والقوى الخارقة ، ففيه بلغت السيمياء ذروتها من الازدهار واجتاحت سواد العقول في البيئات الرفيعة ، وذاع أمر اكسير الحياة ، وظهر جماعة من أقطاب الدعاة السريين بذوا السلف في الابتكار والتأثير، والتسلط على الانفس . كان هذا العهد عصراً ذهبياً للادعياء والعرافين والسيمائيين ، وكان أولئك الدعاة يناهضون العلم من جانبه الغامض ، ويزعمون انهم وصلوا الى ما قصر عن ادراكه ، ففي الوقت الذي بدأ فيه العلم درس المسائل الطبيعية دراسة جدية نهض فردريك مسمر الالماني زاعماً أنه يستطيع شفاء جميع الامراض ، ولا سيما الامراض العصبية بتعريض أجسام المرضى الى تأثير الخفاء او ما كان يسميه بالمغنطيسية الحيوانية . وفي سنة ١٧٧٨ وفد مسمر على باريس ، فهرع الى داره الناس من كل صوب وأسس جمعية سرية تعرف « بأصدقاء التناسق » وكان الشفاء يأتي على أثر نوبة عصبية تعتور المريض . والواقع أن النجاح كان حليف مسمر في أحيان كثيرة اذ كان المريض يشفى اما مؤقتاً أو نهائياً ، ولا غرابة في ذلك فقد كان مسمر يطرق ناحية من المباحث النفسية والروحية ما زال العلم في عصرنا يتعثر في استجلاء غوامضها، ويستخرج في كل يوم عجيبة من عجائبها . واذا كانت الشعوذة تغشى تجارب مسمر ، فقد كان للنوبات العصبية التي كانت تثيرها تجاربه أثر لا يمكن الاغضاء عنه ، وكان ايمان المريض يساعد غالباً في نجاح التجربة . وهكذا طار صيت مسمر ، وخلبت تجاربه وجلساته المغنطيسية ألباب الناس في ذلك العصر ، فانتدبت في سنة ١٧٨٤ لجنة ملكية لتحقيق مزاعمه وتجاربه . وقضت بانكارها لاسباب علمية ، ولما كانت تثيره الجلسات المغنطيسية

والنوبات العصبية التي تتخللها من فضائح وخروج على الحياء والحشمة ، وقضت بانكارها الجمعية الطبية أيضاً . ولكن هذا الانكار لم يخمد من حماسة الرأي العام ، ولم ينتقص من صيت مسمر ، بل آمن بتجاربه وعلمه نفر من الاطباء والعلماء ، ورأوا أنه قد افتتح الطريق الى ميدان مثمر جداً . وكانت هذه حقيقة ، فان مغنطيسية مسمر الحيوانية هي التي تطورت ، بعد أن جردت من نواحيها الخرافية ، واستحالت في النهاية الى علم حقيقي هو التنوم المغنطيسي

٣ ـ وفي نفس الوقت الذي طلع فيه مسمر بتجاربه النفسية ، ظهرت جماعة أخرى من دعاة الخفاء دفعت الشعوذة الى غايتها ، ومزجت بين تعاليم الصليب الوردي وتجارب مسمر ، وانتحلت أغرب المزاعم والاساليب ، فغصت أبهاء السادة والخاصة في ذلك الحين بالافاقين والمنجمين والسحرة من تلاميذ هذه الطائفة . وكان أقطاب المدرسة الجديدة وأعلامها في ذلك العصر ثلاثة ، هم الكونت سان جرمان ، ولاسكاريس ، والكونت كاجليوسترو ، وكلهم أفاق بارع وبطل مدهش من أبطال القصة والخيال الرائع

فاما الاول فليس يعرف شيء عن حقيقة أصله ونشأته ، فيقول البعض انه ولد الدونا ماريا دي نويبورج أرملة شارل الثاني ملك اسبانيا ، ويرى البعض الآخر أنه يهودي برتغالي . وقد طاف جميع الاقطار ولا سيما بلاد المشرق ، ولبث حيناً في ألمانيا ، ثم قدم الى باريس في سنة ١٧٥٠ ففتن بلاط لويس الخامس عشر وفتن باريس بجماله ، وظرفه ، وذكائه ، وفصاحته . ويقول ليفي مؤرخ السحر انه كان يصنع الذهب والاحجار الكريمة ، وانه كان ساحراً بارعاً كسحرة ألف ليلة وليلة ، وان أباه بالتبني كان عضواً في الصليب الوردي ، وانه نفذ الى أعمق أسرار جمعية « الشعلة البافارية » (وسنتكلم عنها بعد) . وأنشأ الكونت جمعية سرية صوفية تعرف « بالقديس يا كن » . وكان يدعي أموراً خارقة فيزعم أنه عاش ومات مراراً عديدة مدى القرون ، ويعدد حوادث ماضيه منذ العصور الغابرة ، فيقول انه كان صديقاً لملكة سبأ ، وكليوباترة ملكة مصر ، ويصفهما ويعدد خلالهما ومآثرهما بمنتهى الدقة ، وانه شهد مجلس ترنت ، وحادث فرانسوا الاول وهنري الرابع . ويصف كل ذلك بخطورة وجد . وكان لويس الخامس عشر يشغف بسمره ، ويقضي الليالي في سماع قصصه وفي سنة ١٧٦٠ غادر الكونت باريس وتجول في انجلترا وروسيا وايطاليا ، وكان يفتن كل بلاط وكل مجتمع . ويقول البعض انه كان يمضي في طوافه فراراً من

انتقام « الشعلة البافارية » التي فضح أسرارها . ثم اختفى فجأة وتوفي سنة ١٧٨٤ بعد أن عمر نحو قرن . واختلف في أمر وفاته أيضاً فقيل انه قتل بيد جمعية الصليب الوردي ، وقيل انه توفي في شلزفج عند الامير كارل فون هاسه الذي كان يعلمه السحر والخفاء

وأما لاسكاريس فكان يزعم أنه حبر شرقي يجمع الصدقات لدير يوناني ، وكان يبدو أحياناً شاباً في عنفوانه ، وأحياناً كهلاً هدمته السنون ، ويبذر من المال أكثر مما يجمع ، ويهب تلاميذه جزءاً من مسحوق غريب يحول -على ما قيل- أخس المعادن الى الذهب الخالص

وأما كاجليوسترو فهو بطل آخر من أبطال القصة ، خلد اسكندر دوماس اسمه في قصصه ، وهو ايطالي يهودي على الارجح ، واسمه الحقيقي يوسف بلسامو ، وُلد في



كاجليوسترو

بالرم سنة ١٧٤٣ على أنه كان يزعم أن عمره يربى على ثلثمائة سنة ، وأنه عاش مرة قبل ذلك أيام المسيح ، وأن المسيح كان صديقه الحميم . وقد نشأ أفاقاً ماهراً وسافر الى اليونان ، وتجول أعواماً طويلة في مصر وبلاد العرب وفارس وغيرها من بلدان المشرق بأسماء وصفات خلابة ، وكان يكسب قوته هنالك من التنجيم والتعزيم في الميادين العامة ، والتغرير بعقول البسطاء . ثم عاد الى أوربا وامتهن الطب والتنويم والتنجيم والسحر ، وزعم أنه قد نفذ الى الاسرار التي فقدت منذ أقدم العصور ، وانه يستطيع أن يصنع الذهب ويكبر الماس ويشفي جميع الامراض . وكان لمزاعمه وذكائه تأثير صادق في الافراد والجماعات ، فكان يهرع اليه مئات من المرضى والبسطاء لينتفعوا

بعلمه وطبه حتى غدت شهرته تطبق الآفاق . وكان كاجليوسترو يعتنق تعاليم الفرسان والصليب الوردي ، وقد أسس شعبة سرية على نمط التقاليد المصرية القديمة كان يجري رسومها السحرية متنكراً في صورة أبي الهول . ويقال انه تنبأ لكثيرين من سادة البلاط الفرنسي بألوان الموت التي لقوها فيما بعد ، وأرى ماري أنتوانيت يوم كانت ولية للعهد شبح الجيوتين في اناء من الماء . ثم اضطر الى مغادرة فرنسا سنة ١٧٨٦ على أثر اتهامه وتبرئته في حادث عقد الملكة [١] وعاد الى ايطاليا حيث قبض عليه بعد ذلك بقليل ، وقضى عليه مجلس التحقيق في رومة بالاعدام بتهمة بثه مبادىء الجمعيات السرية ، ثم غير الحكم الى السجن المؤبد

وقد ظهر في هذا العصر أيضاً كثير من السحرة الاصاغر مثل شريدر الذي أسس في سنة ١٧٧٦ جمعية سرية لمزاولة السحر والسيمياء ، وجاسنر الالماني الذي عكف حيناً على مزاولة الخوارق والمدهشات ، وليون اليهودي وهو عضو من طائفة لبثت حيناً تغرر بعقول البسطاء وتستلب أموالهم بعرض المرايا السحرية التي يرون فيها أصدقاءهم الغائبين ، وكثيرون غيرهم ممن لبثوا يستغلون ايمان الخاصة وفضولهم في المانيا وفرنسا بين سنتي ١٧٤٠ و ١٧٩٠

هؤلاء الدعاة المجهولون الذين تتشابه أساليبهم ومغامراتهم ، والذين كانوا ينثرون الذهب الوفير بلا حساب منتحلين السيمياء مصدراً لثروتهم وبذخهم ، والذين كانوا يحشدون الانصار والتلاميذ أينما حلوا بدعوى تلقينهم أسرار الكابالا لم يكونوا أولئك المسامرين المسالمين الذين اعتقدهم الناس ، بل كانوا بلا ريب رسل دعوة خفية ، وسياسة مظلمة ، وبينما كانوا يطربون الناس ويدهشونهم بشعوذتهم وفكاهتهم ، اذا بهم في نفس الوقت يجدون في تقويض اسس العالم القديم ، ولئن اختاروا السحر حجاباً لمقاصدهم فذلك لان شغف الخفاء كان نقيصة العصر ، وكان يعصف بكل مجتمع وكل دهن ، وكان أولئك الدعاة أذكى من استطاع استغلال هذه النقيصة والاستفادة من هذا الضعف

هذا وسنعود الى التكلم عن علائق أولئك الدعاة بالجمعيات السرية التي قامت في ذلك العصر

(١) فصلنا الدور الذي قام به كاجليوسترو في هذا الحادث في كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » في الفصل الخاص « بعقد الملكة »

٣
احدث أطوار الخفاء

٤ ـ في فاتحة القرن التاسع عشر اتخذ الخفاء طوراً جديداً ، وبينما ركدت ريحه حيناً في فرنسا على أثر الثورة ، اذا بها قد اشتدت في المانيا ، حيثما أزهرت الجمعيات السرية أيما ازهار ، فأذاع اكارتسهاوسن أنه يستطيع مخاطبة الروح بأساليب واجراءات معقدة تتخللها الاضواء السحرية ، وعطور ومخدرات تدفع بالتلاميذ الى عالم الخيال الرائع . وكان ملك بروسيا فردريش ولهلم يشهد بنفسه هذه التجارب . وقامت في ذلك الحين أيضاً جمعية سرية تعرف « بالموبس » (نوع من الكلاب) تعقد جلساتها السرية بالرقص والطرب ، واتباع كثير من رسوم القداس الاسود . ولعل جيته كان متأثراً بهذا الجو حيما كتب قصته الخالدة « فاوست » وألم فيها بوصف كثير من هذه الرسوم والاجراءات الخفية

وفي منتصف هذا القرن ظهرت حركة « الروحيين » الحديثة ، وكان ظهورها في العالم الجديد بادىء بدء . ولم تعن هذه الحركة بأمور لم يعن بها الاقدمون او لم تتناولها دعوة الخفاء القديمة ، فقد شهد التاريخ في جميع عصوره محاولة النفاذ الى عالم الغيب والاتصال بأرواح الذاهبين والتكلم عن المبعوثين ، والمظاهر الملكية . وكان السلف يعالجون الاتصال بها من طريق التوسل بالآلهة والقديسين أو من طريق السحرة والشياطين ، ولكن الروحيين المعاصرين يترفعون عن هذه الخرافات ويثورون سخطاً واباء اذا ما وصمتهم بالسحر ، ويجيبون ان السحر مهزلة عتيقة تستند الى علم خرافي ، وانهم جماعة وضعية تعنى بالتجارب والمباحث العلمية ، وان محاولة الاتصال بروح ذاهب من طريق « الوسيط » ليست في شيء من المستحيل أو الخارق كما ان المخاطبة التلفونية أو اللاسلكية بين باريس ونيويورك ليست مستحيلة أو خارقة . والواقع أن حركة الروحيين قد استطاعت أن توطد قدمها في أميركا وأوربا وأن تظفر بتأييد كثير من المفكرين النابهين . بيد انها ما زالت تثير ريب الدوائر العلمية ، وما زال العلماء في أوربا وأميركا يمطرونها وابلاً من الانكار والسخرية . وليس من موضوعنا ان نعنى بهذه الحركة ، خصوصاً وانا نميل الى انكارها بشدة ، بيد أنا نشير اليها فقط باعتبارها طوراً من أطوار الخفاء الذي اتخذ في القرن الثامن عشر آلة نافذة لبث الدعوات السرية ، وقد لا يكون من المستحيل أن وراء هذه الحركة الخفية دعوة لا يستطيع الجيل الحاضر ان ينفذ الى سرها الدفين

في الجمعيات السرية المعينة

جمعية البناء الحر

La Franc-Maçonnerie

(١) أصل البناء الحر . مختلف النظريات التي قيلت في ذلك . العنصر الشكلي في البناء الحر وأصله (٢) العنصر الفلسفي في البناء الحر وأصله . هل اليهودية مصدر تعاليمه السرية . الاسطورة السليمانية . انتقالها الى البناء الحر (٣) فرسان المعبد وسيلة انتقال الاسطورة السليمانية . هل اشتق البناء الحر نظمه من الاسماعيلية (٤) البناء الحر والصليب الوردي . تعدد المصادر التي اشتق البناء منها (٥) النظم السرية وسيلة للنضال . انشاء المحفل الاكبر وسببه . دستور اندرسون والدين . الخلاف على المراتب (٦) تعدد المحافل . محفل باريس وخصومته مع الكنيسة . انتساب البناء الى الصليبيين (٧) مراتب البناء العليا ومراتبه كلها . انشاء المشرق الاعظم (٨) غايات البناء الحديث ومبادئه (٩) الدين والسياسة في البناء الحر . شعائر المشرق الاعظم ومثله (١٠) عداء المشرق الاعظم للدين . انكاره والحاده . غايته الهدامة (١١) المثل الاشتراكية مثل البناء الحر . البناء الحر والفاشزم . البناء الحر في اسبانيا والبرتغال (١٢) غلبة الشيوعية على البناء في شرق أوربا . البناء في الشرق (١٣) البناء البريطاني

— ١ —

اصل البناء الحر

١ ـ البناء الحر[1] من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي ما زالت قائمة ولها شعب وفروع في معظم الامم المتمدينة . ولكن منشؤها ما زال غامضاً مجهولا ، وغاياتها الحقيقية ما زالت سراً حتى على أعضائها أنفسهم . لا يعنى معظم البنائين الاحرار بأن يعرفوا شيئاً عن تاريخ جمعيتهم ، ويعظم الخلاف على ذلك بين ثقات الجمعية أنفسهم . وقد أشار الى ذلك مؤلف بناء هو المستر البرت تشيرشوارد في كتاب حديث كتبه عن « الاشارات والرموز » فقال : «أذيعت حتى الآن آراء ونظريات كثيرة متناقضة عن أصل جمعية اخوان البناء الحر وعن زمان نشأتها ومكانه ، وعن السبب الذي قامت من أجله ، وعن الاقسام والرسوم المختلفة التي تنقسم اليها درجاتها المختلفة . بيد أن كلما كتب عن ذلك حتى الآن ليس الا نظريات لا تستند الى أسس حقيقية»

(١) وتسمى بالعربية أحياناً بالماسونية غير أن هذه ليست ترجمة وليست أصلا ، ولذلك آثرنا ان نترجها بمعناها الحقيقي وهو البناء الحر

وتتلخص هذه الآراء والنظريات في أن البناء الحر يرجع أصله الى واحد من اثني عشر هي : (١) الى البطارقة (٢) الى أسرار الوثنيين (٣) الى بناء معبد سليمان (٤) الى الصليبيين (٥) الى فرسان المعبد (٦) الى جمعية الصناع الرومانية (٧) الى عمال البناء في القرون الوسطى (٨) الى اخوة الصليب الوردي (٩) الى أوليفر كرمويل (١٠) الى البرنس تشارلس ستوارت أنشأها لاغراض سياسية (١١) الى السير كرستوفر رن عند بناء كنيسة القديس بول (١٢) الى الدكتور دزاجليه وأصدقائه في سنة ١٧١٧

وليس معنى ذلك أن أصل البناء الحر يرجع حتما الى واحد من هذه ، ذلك لان البناء الحر الحديث يستند الى أصلين مختلفين ، الى صناعة البناء ذاتها ، والى نظرية فلسفية عن أسرار الحياة والموت . وقد عبر عن ذلك بناء حر معروف هو الكونت دالفيلا في قوله : « ان فكرة البناء الحر الفلسفية هي ثمرة مزج طائفة البنائين في القرون الوسطى ، وفرقة سرية من تلاميذ الفلسفة ، قدمت الاولى اليها الشكل ، وقدمت الثانية اليها الذهن »

أما عن الاصل الاول وهو طائفة البنائين أنفسهم ، فقد وجدت جماعاتهم منذ القرون الغابرة في أقدم أمم التاريخ مثل مصر واليونان . ووجدت في أوربا الغربية منذ بدء النصرانية . وذاعت في جميع الامم الغربية خلال العصور الوسطى . وقد نقل الرهبان رسومها وتقاليدها من مصر القديمة الى أوربا . ووضع الرومانيون منها نماذج جديدة ، وأنشأوا جمعية عرفاء البناء المعروفة . ومن ثم يرجع بعض الباحثين أصل البناء الحر الى هذه الجمعية الرومانية ، ويقولون ان اول جمعيات بناء عرفت في بريطانيا قامت على أثر الاحتلال الروماني وبلغت من الاهمية أن كان يرعاها كثير من العظماء مثل سنت البان والملك الفرد والملك ادوين حتى أصبحت بمرور الزمن هيئات ممتازة وجمعيات حرة ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء الجزر البريطانية . بيد أنا لا نستطيع أن نؤكد وجود هذه الجمعيات في اوربا الغربية قبل عهد الهندسة القوطية حيث أنشأ البناؤون في فرنسا جماعات كانت تسمى بجماعات الرفاق Compagnonnages وفي المانيا جماعات تعرف « بغواني الحجارة » Steinmetzen . وكانت هذه الجماعات تحرص على كتمان أسرار مهنتها ، وقد كان للمهنة حينئذ أسرار ، وكان لها مكانة تشهد بتفوقها تلك الكنائس الفخمة التي خلفها عهد البناء القوطي في كثير من مدن أوربا الغربية . وذكر الاب جرانديديه في رسالة كتبها سنة ١٧٧٨ : « ان جمعية البنائين

الاحرار هـذه التي تفيض كبرياء ليست الا تقليداً وضيعاً لاخاء قديم نافع كان يضم البنائين الحقيقيين . وكان مركز هؤلاء الاخوة في مدينة شتراسبورج بادىء بدء ، وقد صادق الامبراطور مكسيمليان على جمعيتهم في سنة ١٤٩٨ » وهنالك أيضاً ما يدل على أن هذه الجمعيات كانت تفوز بكثير من الامتيازات في فرنسا وانجلترا والمانيا في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر

٢ ـ واما عن التعاليم والاسرار الفلسفية التي تستند اليها جمعية البناء الحر فيقال ان رجلين من رجال الدين هما الدكتور ديزاجليه والدكتور أندرسون هما اللذان ابتكرا المبادىء والنظم الجديدة وأسسا محفل انجلترا الاكبر وكان ذلك في سنة ١٧١٧ ، وانه لم يسمع قبل ذلك بأسرار البناء الحر. بيد أن بعض الباحثين ينكرون هـذه الرواية ويدللون على بطلانها ، ويرون أن النظام الجديد لا بد أن يكون ثمرة لحركة كبيرة لبثت عصوراً تختمر وتنضج ، فاذا كان للعالمين الانجليزيين فضل فليس في ابتكار النظام وانما في اصلاحه وتهذيبه

وهذا هو الرأي الذي يرجحه سواد الباحثين في أصل البناء الحر اذ يقولون ان أصل التعاليم الفلسفية لهذه الطائفة قديم جداً قد يرجع الى الـكابالا اليهودية ، والى بطارقة العصور الاولى حيث كانت تنتظم جمعيات الحـكماء في مصر وكالديا وفارس واليونان . ويرجح المستر البرت تشرشوارد بالاخص أن عنصرها الفلسفي مصري محض فيقول في كتابه سالف الذكر : « كان للبطارقة والسحرة في الهند وفارس وكالديا وأشوريا نفس الرسوم الدينية ، يتبعها كل من التحق بطائفتهم من الـكهنة . وكان هؤلاء يقسمون الايمان الخاشعة أن يحرصوا على اخفاء التعاليم وأن يكتموها عن بقية العالم. أما هذه التعاليم فترجع كلها الى مصدر واحد هو مصر » . ويشير هذا الـكاتب ايضاً الى عبارة وردت في خطاب ألقاه الدكتور وليم دود في حفلة افتتاح معبـد بنائي في سـنة ١٧٩٤ رد فيها أصل البناء الحر الى « العرافين الاوائل في سهول كالديا ، وملوك مصر وكهنتها المتصوفة ، وحكماء اليونان ، وفلاسفة رومة » ثم يقول أصحاب هذا الرأي ان هذه التعاليم والرسوم القديمة نقلت الى الغرب على يد جمعيات البنائين ، ونقلتها الى انجلترا جمعية الصناع الرومانية

على أن مبادىء البناء الحر وتعاليمه لا تحمل طابع هذه الامم القديمة وان كانت رسوم محافلها تشير بعض اشارات موجزة الى خفايا مصر وفينيقيا ، والى تعاليم فيثاغورس السرية ، والى اقليدس ، والى افلاطون في رسوم مراتب المهنة وتعاليمها .

ذلك لان التعبيرات وكلمات التعارف المستعملة ليست مصرية او يونانية أو فارسية أو كلدية بل يهودية ، وعلى ذلك فاذا كان قد تسرب الى الغرب شيء من التعاليم السرية القديمة على يد الاحبار والرومان المتفقهين في اسرار اليونان ومصر ، فلا ريب أن الكابالا اليهودية كانت طريقاً أخرى لنقلها . وهذا ما يقرره بعض الكتاب البنائين أنفسهم اذ يسندون تقاليد الطائفة الى مصر واليونان وكالديا من جهة والى الاسرائيليين من جهة أخرى ، وينسبون نظمها الى المتنذر الثاني ، ويردون أصولها من بعد آدم ونوح وابراهيم الى موسى وداود وسليمان ، بل تقرر الطائفة ذاتها أخذ نظمها عن سليمان ، وهو ما تحتويه تعاليمها التي تلقن الى مرشحي الالتحاق بالدرجة الاولى ، وهذه النسبة ذاتها هي التي يقررها اليهود بشأن الكابالا ، هذا الى ان البناء الحر الحديث يرد برمته الى الاسطورة السليمانية او بالحري الى الاسطورة الحيرامية التي يحسن أن نلخصها فيما يلي :

لما بنى سليمان معبده استخدم صانعاً للنحاس يدعى حيرام وهو ابن أرمل من قبيلة نفتالي أرسله اليه حيرام ملك تير Tyr . تقول اسطورة البناء الحر ، وحيرام هذا هو حيرام ابيف ، كان عريفاً للبنائين . ومن اجل المحافظة على النظام قسم البناءون الذين يشتغلون في المعبد الى ثلاث طبقات هي : المتمرنون ، وأبناء المهنة ، وعرفاء البنائين. تتميز الاولى من الثانية منها برموز وأقوال مختلفة للتفاهم وتتفاوت في الأجر ، وتشمل الثالثة ثلاثة اشخاص فقط هم سليمان نفسه وحيرام ملك تير الذي أمده بالخشب والاحجار الكريمة وحيرام ابيف . وقبل ان يتم بناء المعبد ائتمر خمسة عشر من « ابناء المهنة » معاً على استكشاف أسرار « عرفاء البنائين » واعتزموا ان يكمنوا لحيرام أبيف عند باب المعبد ، ولكن اثني عشر منهم انشقوا في اللحظة الاخيرة ، وقام الثلاثة الباقون بتنفيذ المشروع ، وعبثاً هددوا حيرام للوقوف على السر ، فعندئذ قتلوه بثلاث ضربات على الرأس ضربه كلٌّ واحدة ثم حملوا الجثة خارج بيت المقدس ودفنوها في جبل مرياح . ولما علم سليمان باختفاء عريف البنائين أرسل للبحث عنه خمسة عشر من « أبناء المهنة » فوصل خمسة من هؤلاء الى الجبل ولاحظوا موضعاً فيه غيرت معالم أرضه وهنالك عثروا بجثة حيرام ، فعلموا المكان بغصن وعادوا فقصوا على سليمان ما شاهدوه ، فأمرهم سليمان بان يدفنوا الجثة ففعلوا

ومقتل حيرام ودفنه او بالحري « رفعه » وما يقترن بذلك من ضروب الأسى والتحسر عند البنائين ذروة الخشوع والاجلال ، كما ان مقتل الحسين هو الذروة

عند الشيعة ، واذا لم يك ثمة دليل تاريخي يؤيد وقوع مثل هذه المأساة ، فان ابتكارها يعتبر على الاقل قرينة على وجود مذهب قديم لا يستند الى واقعة حقيقية ولكن الى نظرية سرية . والواقع انا نجد امثال هذه المأساة والرسوم ماثلا في جميع الاساطير الدينية القديمة ، وفي وسعنا ان نقارن قصة مقتل حيرام ، بالاسطورة المصرية القائلة بمقتل أوزيريس وبحث إزيس عن جثته ، والعويل الذي ثار حول قبره برسوم الحداد التي أقيمت لاوزيريس وادونيس ، وقد « رفع » كلاهما ، وايضاً بما وقع حول تابوت مانيس الذي قتل غيلة كما قتل حيرام ، وقد كان ابن أرمل على قول المانوية ، بيد ان الاسطورة كما يتناقلها الاخوة البناءون مصوغة في قالب وأسلوب يهوديين مما يدل على انها اشتقت من الصيغ اليهودية للتقاليد الغابرة

اما طريق انتقال هذه الاسطورة الى البناء الحر فيوضحه اصحاب هذه النظرية فيما يأتي :

لما بني معبد سليمان تفرق البناءون الذين اشتركوا في بنائه فنزح بعضهم الى اوربا واستقر نفر منهم في رومة حيث انشأوا جمعية الصناع الرومانية التي نقلت نظمها ورسومها بعد الى جمعيات الصناع في انجلترا وفرنسا والمانيا في العصور الوسطى ، وتناقلت بعضها اسطورة مقتل حيرام ، بيد انا لا نستطيع ان نحدد بالضبط متى نشأت هذه الاسطورة . فيقول البعض ان الخفايا العبرية وجدت منذ وجود الجمعية الرومانية وان الجمعية كانت تصطبغ بالصبغة اليهودية الى حد كبير . ويدحض آخرون الفكرة ويقولون ان مثل هذه التقاليد والخفايا لم توجد حتى في عصور السكسون وان فكرة نسبة البناء الحر الى اسطورة معبد سليمان لم تعرف الا بعد الحروب الصليبية ، حوالي القرن الرابع عشر . والى هذا العصر كانت محافل البناء لا تعنى الا بالتعاليم السرية المصرية واليونانية في حين انها كانت ترجع تقاليدها الى آدم وبابل وهرمس وفيثاغورس . ولم تكن هذه التعاليم يهودية في شيء . ويضيفون الى ذلك ان الخفايا اليهودية والنصرانية لم تكن تعرف حينئذ في محافل البناء فراتبها السرية خلو من آثار هذه الاساطير ، ولم تعرف مراتب العرفاء وابناء المهنة والمتمرنين ، ولم تعرف رمزاً من رموز المعبد ، بل كانت كل رموزها تشير الى اعمال البناء وبعض الحكم الفلسفية الاخلاقية . والخلاصة ان العنصر اليهودي لم يتسرب الى المحافل الا في نهاية الحروب الصليبية

٣ — واذا لم يك ثمة دليل على ان الاسطورة السليمانية أو الرموز اليهودية قد

عرفت في محافل البناء قبل القرن الرابع عشر، فمن المعقول ان نرتد الى فرسان المعبد باعتبارهم حملة هذه العناصر اليهودية الى البناء الحر . وقد أخذ الفرسان اسمهم كما رأينا من معبد سليمان . فالمرجح إذاً انهم وقفوا أثناء وجودهم في بيت المقدس على الاساطير اليهودية المتعلقة ببناء المعبد . وهذا ما تقرره القصصية الفرنسية جورج ساند وقدكانت متبحرة في تاريخ الجمعيات السرية حيث تقول في احدى رواياتها مشيرة الى الفرسان : « كانوا يكون ضعفهم في شخص حيرام ، وكانت كلمة ضاعت وردت تشير الى دولتهم . . . » . وكان الفرسان يكون أستاذهم الاعظم جاك دي مولاي ، وكانت تبكيه جماعات أخرى هي جماعات « الرفاق » التي سبق ذكرها ، وكانت جماعات الفرسان والرفاق تتناقل أسطورة معبد سليمان ، فمعقول اذاً أن تكون التقاليد اليهودية قد نقلت الى جماعات البناء بواسطة الفرسان

ويدلل أصحاب هذا الرأي على قولهم بان أهم رموز البناء الحر مثل المثلث ، والمربع المحمول على عمودين ، والنجمة ذات الحدود الخمسة ، والنجمة المضيئة وغيرها ، يمكن ارجاعها الى الفرسان ، وان الفرسان كانوا بنائين بارعين أقاموا عدداً من الكنائس الفخمة ، هذا الى ان بعض تقاليد البناء الحر تشير الى ان محالفة عقدت في ذلك الحين بين الفرسان وجماعات البنائين ، فلما كانت محاكمة الفرسان في فرنسا فر جماعة منهم في نكيرة البنائين الى ايكوسيا ، وانضموا الى روبرت بروس وحاربوا تحت لوائه ضد ادوارد الثاني الذي طارد جماعتهم في انجلترا ، ثم أسس روبرت بروس الجمعية الملكية وفرسان الصليب الوردي ، وقد نشأت مرتبة الصليب الوردي على قول بعضهم في جمعية الفرسان في عهدها الاول ، ثم يقال أيضا ان روبرت بروس ضم البنائين الى الجمعية الملكية مكافأة لهم على محاربتهم الى جانبه ، فتسربت بهذه الطريقة مبادىء الفرسان الفلسفية الى محافل البناء

يقولون أيضاً ان مراتب المتمرنين وأبناء المهنة والعرفاء قد نقلت من ايكوسيا وبين هذه المراتب ومراتب الاسماعيلية شبه كبير ، وقد احتك الفرسان بالاسماعيلية ودرسوا أنظمتهم وتعاليمهم ، يقول الدكتور بروسنل في كتابه عن التفكير الديني والالحاد في القرون الوسطى ما يأتي : « لا ريب ان كثيراً من الرموز المعروفة اليوم قد عرفت منذ أقدم العصور الى جانب شيء من الهندسة كان يعتبر سراً خفياً ولكن المثل المحقق الذي اقتفي أثره هو محفل الاسماعيلية الاكبر في القاهرة » . ويقول السيد امير علي في كتابه « روح الاسلام » : « أن رواية المقريزي عن مراتب

الالتحاق المختلفة بهذه الهيئة تاريخ قيم للبناء الحر . والواقع ان محفل القاهرة هو نموذج كل المحافل التي أنشئت بعد ذلك في النصرانية » . ومحفل القاهرة المشار اليه هو دار الحكمة الاسماعيلية التي انشأها الحاكم بامر الله والتي أتينا على نظامها ومراتبها في كلامنا عن الاسماعيلية. فمن المحتمل اذاً ان تكون هذه النظم قد نقلت الى البناء الحر على يد الفرسان الذين تلقوها عن الاسماعيلية دعاة دار الحكمة . وهذا ما يفسر تمجيد محافل البناء الحر لذكرى الفرسان ، واعتبارها اياهم ابرياء وشهداء

ويؤثر سواد البنائين في القارة (أوربا) الاخذ بهذا الرأي ، كما يؤثر البناءون البريطانيون القول بارجاع البناء الحر الى الجمعية الرومانية . وقد اعتنق الرأي الاول البناءون الاحرار في القارة في القرن الثامن عشر ، وذلك مهم لان محافل البناء الحر اصلحت ووضعت أسس نظامها الحاضر في ذلك العصر ، فكان اعضاؤها وقتئذ أقرب الى معرفة الحقيقة من الباحثين المعاصرين

٤ — ننتقل بعد ذلك الى الرأي القائل بان نظم البناء الحر اشتقت من نظم الصليب الوردي . يقال ان فرنسيس بيكون الفيلسوف الانجليزي كان بناءً حراً ، وقد كان مع ذلك من اخوة الصليب الوردي . وتدل بعض كتاباته على انه كان ملماً بتقاليد سرية قديمة جداً ، بل يقول بعضهم انه مؤسس الصليب الوردي والبناء الحر معاً. بيد ان بيكون لم يكن مبتدعاً للتقاليد السرية التي قامت عليها هاتان الهيئتان وانما كان ناقلاً ، يقول الاستاذ بيله الالماني : « ان نظم البناء الحر هي نظم الصليب الوردي بعينها ولم يطرأ عليها تغيير الا ما استحدثه أولئك الذين نقلوها الى انجلترا » . ويقول تشامبرس في دائرة معارفه التي ظهرت لاول مرة في سنة ١٧٢٨ « ان بعض خصوم البناء الحر يقول بان جمعية البناء الحر العظيمة الحاضرة ليست سوى فرع من جمعية الصليب الوردي ، أو هي جمعية الصليب الوردي بعينها في ثوب جديد . ومن المحقق ان هنالك من البنائين الاحرار من يتصف بجميع خواص الصليب الوردي » . ولكن الدكتور ماكي مؤلف قاموس البناء الحر يعارض هذا الرأي بشدة ويقرر أن ليس من علاقة ما بين الصليب الوردي والبناء الحر

وهنالك طريق أخرى لعلها سبيل الاساطير اليهودية الى البناء الحر هي الاحبار اليهود في القرن السابع عشر. يقول الكاتب اليهودي برنار لازار: « لقد كان حول مهد البناء الحر يهود » واذا طبقنا هذه الرواية على العصر الذي سبق انشاء المحفل الاكبر في سنة ١٧١٧ الفيناها مؤيدة بالحقائق . يقال مثلا ان الدرع التي تستعمل

الآن في المحفل الاكبر قد رسمها يهودي، وصورها على مثل الرموز والاساطير اليهودية فدرع البناء الحر كابالية محضة ، وكذلك ختم المهنة الذي تختم به الشهادات يمثل ايضاً رمزاً كابالياً هو صورة رجل وامرأة متعانقين

والخلاصة ان أصول البنـاء الحر لا ترجع الى مصدر واحد ، ولعلها قد اشتقت من جميع المصادر التي ذكرناها بادىء بدء . فقد تكون النظم المـادية اشتقت من الجمعية الرومانية وجماعات البنائين في القرون الوسطى ، والمبادىء الفلسفية من تعاليم البطارقة واسرار الوثنيين . بيـد ان المصدر الذي لا ريب فيه هو الـكابالا اليهودية وذلك سواء كان انتقال اسرارها الى البناء على يد الجمعية الرومانية ، أو الفرسان ، أو الصليب الوردي ، أو يهود القرن السابع عشر . وأقطع حجة على ذلك هو ان النظم والتعاليم اليهودية هي التي اتخذت اساساً لانشاء المحفل الاكبر في سنة ١٧١٧ ووضع رسومه ورموزه ، وان كانت قد مثلت فيها ايضاً بعض التعاليم المصرية القديمة ونظريات فيثاغورس

— ٢ —

عهد المحفل الاكبر

٥ ـ رأينا ان جمعية الصليب الوردي كانت تقوم على فـكرة سرية أخذت عن التعاليم السرية الشرقية ، تربط الاخوة معاً لغاية مشتركة . ولا ريب ان فـكرة كهذه تمكن الخوارج والناقمين أفراداً كانوا او أحزاباً من حشد جموع كبيرة تعمل سراً في سبيل مآربهم وغاياتهم كانت ذائعة محمودة خصوصاً في عصر استعرت فيه لظى المعارك الفكرية ، فاللوثريون ينشطون الى سحق البابوية ، والـكثلكة تحشد جموعها لمحاربة البروتستانتية ، والجمهوريون يأتمرون حول اوليفر كرمويل ، والملـكيون في مختلف الامم يشايعون الاسر المختلفة، وكل جماعة تلجأ الى هذه النظم والتعاليم تحقيقاً لغايتها الخاصة . فقد لجأ اليها اخوة الصليب الوردي في محاربة البابوية، ولجأ اليها اليسوعيون لتحقيق غاية مناقضة هي حماية البابوية وتأييد طغيان الـكثلكة ، ثم يقال أيضاً ان كرمويل ألد خصوم الـكثلكة كان من أكبر دعاة البناء الحر ، وانه استعمل نظمه وتعاليمه للوصول الى السلطان والحـكم ، وان خصومه من الجمهوريين التوريين لجأوا الى نفس هذه النظم في حشد الانصار والجند لمحاربته ، وان محافل البناء الحر كانت

ملكية في أواخر القرن السابع عشر تناصر آل ستوارت وتعمل لاعادتهم الى الملك

بيد ان تاريخ النظم الحاضرة التي أسس عليها البناء الحر يبدأ في سنة ١٧١٧ ، ففي ذلك العام جمع شتات التعاليم والوثائق التي كان يستند اليها البناء الحر وأصلحت ونظمت على قواعد حاسمة ثابتة ، واستبقى البناء الحر مسحة من نظمه المادية ، ولكنه تحول من ذلك الحين الى جمعية سرية مختارة تضم أبناء الطبقات الوسطى والعالية وتعتنق التعاليم الفلسفية . تم ذلك الانقلاب الكبير في أواخر سنة ١٧١٧ حيث اجتمع اخوة أربعة من محافل لوندرة في حانة من حي كوفنت جاردن ، وانشأوا المحفل الاكبر بصفة رسمية ، ولم يكن هذا الانقلاب ضربة فجائية عنيفة بل كان ثمرة تطور لبث يختمر حيناً في معظم المحافل ، ويغالب العنصر المادي في نظم البناء الحر وفي تلاميذه وجنوده ، ولهذا تم الانقلاب في سلام وسكينة ، ولم يك ثمة كبير شأن لمعارضة الاخوة من أبناء المهنة الحقيقيين في تحويل البناء الحر الى وجهة جديدة ، واختيار أنصاره وجنوده من غير أبناء المهنة (مهنة البناء) ، من ذلك الحين اضمحل نفوذ المهندسين والبنائين وانتقلت زعامة الحركة كلها الى أبناء الطبقة الوسطى

على ان الذي لم يوضحه تاريخ البناء الحر هو العوامل التي أدت الى ذلك الانقلاب . ما الذي حدا باخوة لوندره أن يؤسسوا فجأة محفلا أكبر، وأن يضعوا له نظما وتعاليم جديدة ؟ يجيب بعض الباحثين ان المفكرين من اخوة البناء الحر لما رأوا ان الجمعية قد غدت آلة في يد الدسائس والاهواء السياسية اعتزموا أن ينتزعوها من براثن الفوضى وألاعيب المطامع الشخصية وأن يردوها الى غايتها السلمية الاولى ، وان هذا الغرض السلمي هو الذي التف حوله الاخوة الانجليز في عهد الاستاذ الاعظم السير كرستوفررن حيث كان غرض البناء الحر في ذلك الحين « أن يخفف من حدة البغضاء الدينية التي بلغت ذروتها في عهد جيمس الثاني ، وأن يحاول انشاء نوع من الوئام والاخاء بالعمل على قتل الاحقاد التي تثيرها الخلافات الدينية ، وتفاوت المراتب والاغراض » . ومن ثم اعتنق البناء الحر في مسألة الدين سياسة حرة غير طائفية ، وجاء في الدستور الاول الذي وضعه الدكتور اندرسون في سنة ١٧٢٣ ما يأتي : « البناء ملزم بحكم صفته أن يتبع قانون الاخلاق ، واذا استطاع أن يفهم الفن حقاً فلن يغدو قط ملحداً غبياً أو فاسقاً زنديقاً . وقد كان البناءون في العصور القديمة يلزمون اعتناق دين هذا البلد أو هذه الامة مهما كان . وأما الآن فقد رؤي حضهم على اعتناق ذلك الدين الذي يتفق فيه جميع الناس تاركين آراءهم الخاصة جانباً أعني أن يكون المرء فاضلا

صادقاً ذا عفة وشرف . ولهذا صار البناء مهداً للاتحاد وسبيلا لبث الصداقة الخالصة بين الناس »

وقد اعتبر البعض اشارة الدكتور اندرسون الى دين يتفق فيه جميع الناس دعوة الى نبذ النصرانية وان البناء الحر أصبح من ذلك العهد جمعيــة هادمة تعمل كمعظم الجمعيات السرية الاخرى لسحق التعاليم الدينية . وثارت حولها الظنون منذ البداية نظراً لشديد حرصها في كتمان أسرارها وتعاليمها ، واتهمت بأنها تدس الدسائس ، وتعمل على هدم السلطات السياسية والدينية تحت ستار الدعوة الى الاخاء والصداقة ، هذا الى أن الخلاف على أمر المراتب الجديدة التي أدخلت الى الطائفة كان يمزق جماعات البناء الحر عندئذ

وذلك ان المراتب السرية التي كانت يقرها البناء الحر حتى انشاء المحفـل الا كبر والتي أقرها هذا المحفل في دستور البناء الجديد كانت ثلاثة هي : المتمرنون ، وأبناء المهنة ، والعرفاء ، وهي التي اتخذت اساساً لانشاء جمعيات البناء الحديثة . وفي نحو سنة ١٧٤٠ وضعت فوق هذه المراتب مرتبة جديدة هي « القبة الملكية » وهي اولى المراتب العليا التي تعرف اليوم بالرسوم الايكوسية . فكان هذا الابتكار الجديد في شأن المراتب مثار خلاف شديد في جماعات الطائفة أدى الى انقسام البناء الحر الى فريقين متعارضين فريق القدماء وفريق المحدثين ، واستمرت هذه المرتبة الجديدة تطبق منذ سنة ١٧٥٦ حتى الغاها المحفل الاكبر نهائياً في سنة ١٧٩٢ ، بيد أنها أعيدت الى جماعات البناء الحر الانجليزية في سنة ١٨١٣ . وترجع هذه الدرجة الى اصل يهودي ايضاً فهي تمجيد لاسرائيل وتخليد لذكرى المعبد الثاني . ويقول عنها مؤرخ للبناء الحر : « ان درجة القبة الملكية كانت بلا ريب من وضع يهودي كابالي في نحو سنة ١٧٤٠ ولنا ان نفترض ان التعاليم السرية أضيفت من ذلك الحين الى دستور اندرسون »

٦ — وكان انشاء المحفل الاكبر في لوندرة فاتحة لقيام محافل كثيرة في القارة ، في مون سنة ١٧٢١ ، وفي باريس سنة ١٧٢٥ ، وفي مدريد سنة ١٧٢٨ ، وفي لاهاي سنة ١٧٣٣ ، وكذلك في همبرغ وغيرها . وحصل كثير منها على مصادقة المحفل الانجليزي الاكبر الا محفل باريس فانه لم يحصل على هذه المصادقة الا في سنة ١٧٤٣ وذلك لان محفل باريس كان يغلب عليه العنصر السياسي وكان يعمل خفية على رد أسرة ستوارت الى العرش الانجليزي . وكان زعيمــه تشارلس رادكلف قد فر من انجلترا الى فرنسا وتسمى باللورد درونتواتر ، ويقال انه هو الذي أسس هذا المحفل في

سنة ١٧٢٥ وانتخب له أستاذ اعظم . وقد كان البناء الحر لاول عهده ملكياً كما رأينا أوكان آلة في يد الاحزاب الملكية ومطية لمطامع الاسر، ولم يكن ممنوعاً من الاشتغال بالسياسة قبل صدور دستور الدكتور اندرسون في سنة ١٧٢٣ وقبل ان يعتزم المحفل الاكبر تطهير المحافل من الاهواء والمنازعات السياسية وتحويلها الى طائفة اخاء ، ووفاق عام

وكان محفل باريس منذ نشأته موضعاً لشكوك الملكية ، والكنيسة بالاخص، حيث كان يعتقد ان الجمعية الجديدة التي نظمت باسم البناء الحر ليست الا جمعية فرسان المعبد أعيدت برسوم ونظم جديدة . ولذلك استثار المحفل خصومة الملكية والكنيسة منذ البداية ، وذكت هذه الخصومة حتى صدر في سنة ١٧٣٧ امر ملكي بحل الجمعية. وفي السنة التالية أصدر البابا كليمنضس الثاني عشر قراراً بردة البناء الحر وردة كل كاثوليكي يلتحق به

على ان هذه المطاردة لم تكن ذات أثر يذكر، لان البناء الحر لم يتعثر بل استمر في تقدمه وانشاء مراتب جديدة ، ولم ينزل عن القول بصلته بالفرسان ، بل جاهر بعض زعمائه بهذه الصلة وزعموا ان مؤسس طائفتهم انما هو جودوفروا دي بويون اول ملك من الامراء الصليبيين لبيت المقدس. ويقول البارون تشودي البناء الحر في رسالته « الكوكب المشتعل » ان نسبة البناء الحر الى الصليبيين هي النسبة التي تلقن في المحافل بصفة رسمية حيث يعلم المرشحون للالتحاق ان جماعة من الفرسان اخذت على نفسها ان تنقذ البقاع المقدسة من ايدي العرب ، ألفت جمعية اسمها البناء الحر معربة بذلك عن ان غايتها الاولى هي اعادة بناء معبد سليمان ، وانها اتخذت طائفة من الرموز والاشارات وكلمات المرور اتقاء لعدوان العرب ، وان اخوة البناء الحر احتفظوا برسومهم وطرقهم وخلدوا الفن الملكي (البناء) بانشاء محافل في انجلترا وايكوسيا وغيرها

في هذه الرواية اشارة بان البناء الحر أنشىء للدفاع عن تعاليم النصرانية . وهذا ما يزعمه كثيرون غير البارون تشودي ومنهم دي براج حيث يقول : ان غاية هؤلاء الصليبيين من الارتباط والتعاون كانت حماية انفسهم من العرب بحجب تعاليمهم المقدسة باغشية من الخفاء، ولهذا اتخذوا الرموز اليهودية وجعلوا لها معاني نصرانية، ويذهب البارون تشودي الى ابعد من ذلك فيقول ان البناء الحر نشأ قبل الصليبيين بزمن

طويل « وان أباءنا وأجدادنا الحقيقيين الذين أنشأوا البناء الحر ، أولئك الرجال الاعلام الذين لا أعين تواريخهم ولا أخون سرهم كانوا جماعة منظمة تسمى بفرسان الفجر وفلسطين » ، ويضيف أن هؤلاء الآباء كانوا يقفون على العلوم الخفية ومنها السيمياء ، وانهم نبذوا تعاليم اليهودية ليستنيروا بهدى النصرانية . فلما كانت الحروب الصليبية خرج أولئك الفرسان من عزلتهم ومخبئهم في صحاري فلسطين وانضموا الى بعض الصليبيين في بيت المقدس ، وأعلنوا اليهم أنهم من ذرية البنائين الذين بنوا معبد سليمان وأنهم يعنون بالهندسة والتعاليم الفلسفية ومن ذلك الحين اتخذوا اسم البناء الحر وقدموا أنفسهم بهذا الاسم الى الجيوش الصليبية وانضووا تحت ألويتها

وهذا كله حديث خرافة لا يحتاج الى تفنيد ولا تعليق

٧ ـ نرى مما تقدم ان البناء البريطاني يرتد في أصوله الى جماعات البنائين في العصور الوسطى ، وان البناء الحر الفرنسي منذ سنة ١٧٣٧ يرجع أصل الطائفة الى الفروسية الصليبية، وان المراتب العليا التي تعرف بالرسوم الايكوسية قد نشأت في مهد البناء الفرنسي فضلا عن أنها كما سنرى تتشح بثوب من تقاليد الفرسان

والظاهر أن المراتب العليا الاولى كانت على قول براج كما يأتي :

(١) بناء كامل مختار — Parfait Maçon Elu

(٢) مختار برنيان — Elue de Perignan

(٣) مختار الخمسة عشر — Elu des Quinze

(٤) المهندس الصغير — Petit Architecte

(٥) المهندس الاعظم — Grand »

(٦) فارس السيف والصليب الوردي — Chevalier de l'Epée et de Rose-Croix

(٧) الفارس البروسي — Chevalier Prussien

والسادسة من هذه الدرجات هي أول ما ظهر منها ، وهي التي تعرف في البناء الحديث « بأمير الصليب الوردي لهيردوم أو فارس الجارح والنسر » . والخلاف كثير في أصلها وسبب نسبتها الى الصليب الوردي . ولما نزل اللورد دروتواتر عن رياسة المحفل الفرنسي للدوق دا نتان في سنة ١٧٣٨ ، أنشئت المراتب الاخرى لاول مرة ، بيد أنها لم تستقر نهائياً الا في سنة ١٧٥٤ . واليك ثبتها مرتبة :

(١) المتمرن البادىء (٢) ابن المهنة (٣) عريف بناء (٤) أستاذ للسر (٥) أستاذ كامل (٦) أمين ثقة (٧) مشرف على البناء (٨) حبر او قاض (٩) مختار التسعة

(١٠) مختار الخمسة عشر (١١) زعيم القبائل الاثنتى عشرة (١٢) أستاذ أعظم مهندس (١٣) فارس القبة التاسعة (١٤) مختار قديم أعظم (١٥) فارس السيف (١٦) أمير بيت المقدس (١٧) فارس الشرق والغرب (١٨) فارس الصليب الوردي (١٩) الحبر الاعظم (٢٠) البطريق الاعظم (٢١) الاستاذ الاعظم لمفتاح البناء (٢٢) أمير لبناس أو فارس الفأس الملكية (٢٣) أمير سيد ملتحق (٢٤) قائد النسرين الاسود والابيض (٢٥) قائد السر الملكي

وظاهر من تلاوة هذا الثبت أن درجاته مزيج من تقاليد الفروسية الصليبية والتقاليد اليهودية ، أو بالحري صدى لتقاليد فرسان المعبد . وقد كان لانشاء المراتب العليا صبغة سياسية وصبغة عداء للنصرانية ، او بعبارة أخرى كان خروجاً على المبادىء الاساسية التي اعتنقها البناء الحر منذ انشاء المحفل الاكبر وصدور الدستور الجديد في سنة ١٧٢٣ وهو الذي قضى « بألا يجري في المحفل حديث ما بشأن الدين او الحكومة »

وقد ألفى خصوم البناء الحر في هذه الخطوة مادة جديدة للطعن والخصومة ، وسخط لها كثير من البنائين أنفسهم ، واعتبرها كتاب البناء الحر خطراً على الطائفة ، وانحرافاً بها عن طريقها الاصلية. ونشأ بسبب ذلك خلاف كبير بين المحافل أدى الى انقسامها الى فريقين متخاصمين ، واشتد التنابذ والتنافس بينهما ، حتى تدخلت الحكومة الفرنسية وقضت بحل المحفل الفرنسي الاكبر في سنة ١٧٦٧

على أن حل المحفل الاكبر لم يمنع استمرار الحركة واجتماع المحافل . وفي سنة ١٧٧٢ أنشىء « المشرق الاعظم » ، وانتخب الدوق دي شارتر له أستاذاً أعظم . ثم استدعى « المشرق الاعظم » المحفل الاكبر للانعقاد وعدم الاذعان الى قرار الحل ، فلبى المحفل الاكبر الدعوة واتحد المحفلان، وأعلن الدوق دي شارتر أستاذاً أعظم لجميع المحافل والمجالس الفرنسية . ويرجع هذا الفوز الى نشاط العنصر الثوري في المحافل . وقد كانت معظم المحافل في المبدأ ملكية ، ولكن سيلاً من الناقمين والساخطين بدأ يجتاحها في أواسط القرن الثامن عشر ، وأولئك هم الذين تغلبوا على البنائين الاصليين وغدوا أغلبية في المحافل قبيل الثورة الكبرى.

— ٣ —

البناء الحر الحديث

٨ ـ يكثر الجدل حول غايات البناء الحر وأغراضه الحقيقية . ومن الصعب أن نستخلص من هـذا الجدل نتيجة حاسمة مؤكدة ، فنقطع بأن للبناء الحر أغراضاً مشتركة معينة ترمي الى تحقيقها محافله في جميع الامم . وكل ما يمكن قوله هو أن البناء الحر نظام يربط أعضاءه معاً لتحقيق غاية لا بعينها ، بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف . وليس أدل على ذلك التباين من تباين المعاني التي تنسب لرموز البناء الحر وتباين الشروح التي تنسب الى أساطيره وتقاليده ، فالمثلث قد يعني مبـدأ التثليث ، او الحرية والاخاء والمساواة ، أو غيرها ، وقد يعني العمودان ، القوة والثبات ، أو الرجل والمرأة ، او النور والظلام او غيرهما . وأما الاساطير فقد تمثل خرافة معبد سليمان سير أي مشروع ، ومقتل حيرام فريسة خصومه ، وقد يقصد بالاشارة السرية الى « خسارة أصابت المجتمع البشري » والى تداركها ، اذكاء الهمم ، وبث روح التضحية ، الى غير ذلك من التفاسير والحلول

وعلى ذلك فان نظم البناء الحر كلها في ترشيح الاعضاء الى المراتب المختلفة ، وحملهم على الكتمان بالايمان الوثيقة ، قد تستخدم لاي غرض اجتماعي او سياسي او انساني او ديني ، وقد تستعمل للبناء او الهدم ، لحماية نظام او سحقه ، لحماية الدين او هدمه ، لتأييد القانون والنظام أو بث الاباحة والفوضى

هذا ولما كان للبناء الحر تقاليد شفوية سرية على طريقة الكابالا اليهودية تأتم بها الطائفة وتسترشد في سيرها وتصرفها ، فمن الخطأ أن نقرر اللون الحقيقي لشكل من أشكال البناء الحر بالرجوع فقط الى مبادئه ورسومه المنشورة ، بل يجب الرجوع أيضاً الى التعاليم الشفوية التي يعتنقها الاعضاء والى التفاسير والمعاني التي تنسب الى الرسوم والرموز . وطبيعي أن تختلف هذه التفاسير باختلاف الزمان والمكان . يوصف البناء الحر في دستوره « بأنه نظام خاص للاخلاق ، محجب بالخيال ، مفسر بالرموز » بيد أن المعيار الذي يرتسمه البناء الحر للاخلاق لا يمكن تعيينه أو تكييفه ، فليس من معيار خلقي عام لجميع المحافل ، ومنهـا ما يتخذ معياراً صارماً للاخلاق ، ومنها ما لا معيار له أصلا . كذلك يقال ان فلسفة البناء الحر نظريتان هما وحدة

الآله وخلود الروح . ولكن هذا الضرب من الفلسفة لم تعتنقه جميع المحافل ، بل منها ما رفض النظريتين معاً « كالمشرق الاعظم » .

فالبناء الحر يختلف اذن باختلاف الامم ، وليست له من مبادىء أو غايات عامة مشتركة . بيد انا نستطيع أن نقسم البناء الحر الحديث الى قسمين كبيرين : البناء الحر في بريطانيا العظمى واميركا وهولاندا والسويد والدانمارك ، وبناء «المشرق الاعظم» الذي يغلب في الامم الكاثوليكية ، وأعظم محافله هو المشرق الاعظم في باريس

٩ ـ يتخذ دعاة الكثلكة من كون البناء الحر في الامم البروتستانتية ليس ثورياً أو خصيماً للدين دليلا على ان البروتستانتية تؤيد غايات البناء الحر ، ويتخذ البناؤون من ذلك دليلا على ان عسف كنيسة رومة قد اضطر البناء الحر أن يتبع سياسة العداء نحو الكنيسة والدولة . وقد أعلن المشرق الاعظم منذ البداية انه يعتنق مبدأ البناء البريطاني من عدم التعرض للدين أو الاخلاق، بيد انه لم يكن في تصرفاته العملية حريصاً على تطبيق هذا المبدأ . فهو في احدى نشراته العتيقة يصرح بما يأتي : « انه لا يتدخل اطلاقاً في مسائل الحكومة أو التشريع المدني والديني ، وهو يحمل أعضاءه على الاشتراك في ترقية جميع العلوم ، غير انه يستثني قبول المشتغلين بفرعين من أجل فروعها ، هما السياسة والدين ، لان هذين العلمين يفرقان بين الافراد والامم ، والبناء الحر يعمل بالعكس على اتحاد الافراد والامم » ومع ذلك فان « المشرق الاعظم » قد رفع القناع في العهد الاخير ، وأثبت بأعماله وتصرفاته انه يسعى الى تحقيق مآرب سياسية . ففي سنة ١٨٨٧ صرح بناء مشهور هو الاخ بلان في محاضرة وزعت على المحافل بما يأتي : « ترون معي أيها الاخوة ضرورة تحويل البناء الحر الى جمعية سياسية اجتماعية هائلة قوية يكون لها أثر حاسم في قرارات الحكومة الجمهورية » . وصرح البناء فرنان موريس سنة ١٨٩٠ بقوله : « يجب ألا يحدث شيء في فرنسا دون أن يكون لعمل البناء الخفي أثر فيه ، ولئن اعتزم البناءون أن ينظموا أنفسهم فلن تمضي عشرة أعوام حتى لا يستطيع أحد في فرنسا أن يتحرك دون اشارتنا »

وفي كل ذلك ما يكشف أمر المعارضة القوية التي نظمها « المشرق الاعظم » لمقاومة الكنيسة والحكومة مؤيداً بذلك خروجه على دستور البناء الاصلي . هذا الى ان « المشرق الاعظم » ثوري في نزعته هدام في جهوده السياسية ، فهو خلافاً للبناء البريطاني الذي يجعل شعاره : « الحب الاخوي والغوث والحقيقة » يعتنق

شعاراً ابتدعته المحافل الفرنسية القديمة وغدا فيما بعد صيحة الثورة الفرنسية وهو : « الحرية والمساواة والاخاء » . وشعار المساواة هـذا هو الذي يحبب البناء الى الفرنسيين . واذا كان « المشرق الاعظم » مخلصاً في اعتناق هذا الشعار فانه يرمي اذن الى أن يحقق المساواة العامة على النحو الذي نادى به روبسبير وبابيف . أما مبدأ الحرية ، وهو صيحة روسو التي أدمجت بعد في اعلان حقوق الانسان ، فيقول « المشرق الاعظم » بشأنها كما قال روسو من قبل : « ان كل الناس أحرار بالطبيعة وعلى ذلك فيجب ألا يخضع انسان لآخر أو ينتحل لنفسه حقاً في حكمه » . وأما مبدأ الاخاء فهو فكرة ثورية بلا ريب وهي شعار الاشتراكية الثورية ، وشعار الشيوعية ، وليس لاعتناقه من معنى سوى ان البناء الحر الاعظم يقصد كباقي الجمعيات الثورية الهادمة الى محو كل شعور وطني وكل نزعة قومية على النحو الذي تنادي به اليوم دولية موسكو الشيوعية . وهذا ما يقرره البناء راجون في كتابه بوضوح حيث يقول : « ان البناء هو الذي يستطيع دون غيره أن يصوغ هذا القانون الانساني الذي يفضي نشاطه المضطرد في سبيل انشاء تناسق اجتماعي عظيم الى مزج جميع الاجناس ، والطبقات المختلفة ، والاخلاق ، والقوانين ، والعادات ، واللغات ، والازياء ، . . . وستغدو دعوته الفاضلة قانوناً انسانياً لكل الضمائر » . ثم يقول في موضع آخر : « ان كل اصلاح خير ، وكل فائدة اجتماعية تترتب عليـه ترجع الى مؤازرة البناء . وهذا اللغز يرجع الى قوة تنظيم البناء ، فهو يسيطر على الماضي . ولن يستطيع المستقبل افلاتاً منه . هذه القوة وحدها هي التي تستطيع تحقيق تلك الوحدة الاجتماعية البديعة التي تخيلها سان سيمون وأوين وفوريه ، ولئن شاء البناؤون فان آراء أولئك المفكرين الانسانيين لن تبقى بعد مثلا خياليه »

أولئك المفكرون الانسانيون هم الذين وصفهم كارل ماركس بالاشتراكيين الخياليين فشعار المشرق الاعظم اذاً هو الاشتراكية الخيالية « يتوبيا » ، وقد كان سواد أولئك الاشتراكيين من اخوة البناء ، أو من أعضاء جمعيات سرية اخرى . وهذا ما يؤيده البناء كلافل بوضوح حيث يقول : « لتمح من بين الناس فروق الجنس والمراتب ، والمذاهب والآراء والوطن ، لتمح التعصب ، وليقض على وباء الحرب ، وبالجملة ليجعل من الجنس البشري أسرة واحدة يوحدها الحب والاخلاص والعمل والعلم . هذا هو العمل العظيم الذي أخذه البناء الحر على عاتقه . . . »

هـذه المبادىء والغايات ، هي التي ينادي بها اليوم تلاميذ ماركس ولنين ودعاة الثورة العالمية !

(١٠) ـ أما فيما يتعلق بالدين فان «المشرق الاعظم» قد خرج أيضاً على دستور المحفل الاكبر البريطاني الذي يقضي، كما رأينا ، بعدم التعرض للمسائل الدينية. وقد أضحى البناء قوة في الامم الكاثوليكية يضطرم النضال بينه وبين الكنيسة ، وقد صرح بناء مشهور هو البانسيلي بقوله : « ان البناء الحديث عدو الكنيسة وعدو الكثلكة ، هو كنيسة الالحاد » . بل صرحت مجلة المشرق الاعظم في سنة ١٨٨٥ بما يأتي : « نحن البناؤون الاحرار يجب أن نقصد الى هدم الكثلكة هدماً تاماً » ، ولا يقتصر «المشرق الاعظم» على مناصبة الكثلكة العداء بل يهاجم كل المذاهب والنحل الدينية ، وكل ضروب الايمان الروحي. وقد قرر «المشرق الاعظم» في سنة١٨٤٩اعتناق فكرة المهندس الاعظم للكون ، وخلود الروح اذ صرح «بأن قاعدة البناء الحر هي الاعتقاد في الله ، وفي خلود الروح ، وتضامن الانسانية » بيد أنه لم يمض زمن طويل على ذلك حتى محا هذا النص من مبادئه وأغفل كل اشارة للمهندس الاعظم ، واستحدث النص الآتي « ان قاعدة البناء الحر هي حرية الاعتقاد التامة وتضامن الانسانية » . وقد حدا ذلك بالمحفل البريطاني الذي لا يذهب في حرية الاعتقاد الى حد الالحاد والانكار ويحتم أن ينتمي كل بناء الى دين ما وأن يوضع فوق المائدة في المحافل كتاب مقدس ـ كالتوراة في انجلترا ، والقرآن في البلاد الاسلامية ـ حدا به ذلك الى أن يقطع علائقه مع المشرق الاعظم في سنة ١٨٧٨

ولم يقف المشرق الاعظم في عدائه للدين عند هذا الحد بل طلب الى كل اعضائه أن يعلنوا اعتقادهم بأن المهندس الاعظم (الله) ليس الا خيالا وحديث خرافة ، وصرحت المحافل بالقاء المطاعن الحادة في الدين ، ونقده ، وهدمه والسخرية من مبادئه ونظرياته ، مثال ذلك أن بناءً حراً هو دلبش التى في سنة ١٩٠٢ في مأدبة بنائية خطاباً حماسياً شدد فيه الحملة على النصرانية ، وقال فيه : « لقد استمر الظفر الجليلي عشرين قرناً . غير أنه أخذ يحتضر بدوره . واليوم يعلن ذلك الصوت الخفي ـ الذي أعلن ذات يوم موت بان في جبال ابيروس ـ موت ذلك الاله الدعي الذي وعد المؤمنين بعهد عدالة وسلام . لقد استمرت الخرافة طويلا جداً ، ولكن الاله الكاذب يختفي بدوره ، ويذهب ليغيض في غبار القرون الى جانب آلهة الهند ومصر واليونان ورومة ، تلك الامم التي شهدت كثيراً من هذه المخلوقات الزائفة تهبط

الى اسفل هياكلها . ونحن البنائين الاحرار نغتبط بأن نجاهر بأنا لا نعني بسقوط أولئك الانبياء الزائفين . وقد أخذت الكنيسة الرومانية التي أسست على دعائم الخرافة الخليلية تتدهور بسرعة منذ أن أنشئت جمعية البناء . وكثيراً ما اختلف البناؤون الاحرار على الوجهة السياسية ، ولكن البناء الحر قد أجمع في كل العصور على هذا المبدأ وهو : محاربة كل الخرافات الدينية وكل ضروب التعصب الديني »

والخلاصة أن «المشرق الاعظم» على ما يؤكده خصوم البناء الحر ، هيئة هدامة ، تقصد الى سحق جميع المبادىء الدينية والاخلاقية ، بيد أن بعض الباحثين لا ينسبون هذه النزعة الثورية الهدامة الى البناء الحر ذاته بل الى قوة خفية تعمل من ورائه ، وان المشرق الاعظم ستار فحسب ، وعلم ينضوي الاعضاء تحته للعمل لغاية يجهلونها ، بل لا يقف سواد البنائين في المراتب العليا على غايات الهيئة الخفية ، ولا على القوى التي تعمل من ورائها . ثم يقولون ان هنالك ثلاثة أنواع كبرى من البناء الحر متدرجة في السمو هي البناء الازرق وفيه لا يكشف شيء من الاسرار الحقيقية للاعضاء ويعتبر فقط مكاناً لاختيار الاخوة المخلصين ، والمراتب العليا وفيها لا يكشف للاعضاء من الاسرار الحقيقية سوى اليسير ويفهمون مع ذلك أنهم قد وقفوا على كل أسرار الهيئة ، والهيئة الداخلية ، وهي مرتبة « الاساتذة الحقيقيين » وهم الذين يحتجبون وراء البناء الاعلى ، ولا تعتبر الدرجات في اختيارهم دائماً . وهذه الهيئة الداخلية ، أو البناء الحر الخفي دولية الصبغة الى حد عظيم

١١ ـ فما هي هذه القوة الخفية التي تسير البناء الحر ولا ترى ؟ يجيب البعض انها هي القوة « اليهودية » وان قادة المشرق الاعظم سوادهم من اليهود . ثم يقولون انه لا مراء في أغراض البناء الثورية ، بل لا مراء في أن هذه الاغراض هي غايات الاشتراكية الدولية نفسها . ويكفي للتحقق من ذلك أن نلقي نظرة على برنامج المناقشات في ٥ يونيه سنة ١٩٢٢ كما نشرته مجلة المشرق الاعظم :

(١) « الاتحاد وفرنسا ». قراءة تقرير اخينا ت .·. س .·. ف .·. شاردار عن « استثمار الثروات القومية لفائدة الجماعة »

(٢) «المجددون» : «استثمار الثروات القومية والمشاريع الكبرى لفائدة الجماعة » محاضرة أخينا ف .·. جولدشمت عن نفس الموضوع

(٣) « الانسانيون المتحمسون » : « هل ثمة ضرورة لتغيير المجتمع الحاضر ؟ » محاضرة . . . الخ

(٤) «السلام والعمل والتضامن» : «دور البناء الحر في السياسة الحاضرة » . . .
(٥) « الاشتراكية الفرنسية » . . .
(٦) «القلوب المتحدة المجتمعة» : « كيف نبث مثلنا البنائية في العالم الدنس » . . .
(٧) « الارهاب والخطر الفاشستي في ايطاليا. الفاشزم والبناء الحر الايطالي »...

نرى من ذلك أن البناء الحر يعتنق المثل الاشتراكية ، بل يبث الاشتراكية ذاتها ، وهو لذلك خصيم الفاشزم والفاشزم خصيمة الاشتراكية كما نعلم ، وقد ظهرت هذه الخصومة واضحة منذ انتصار الفاشزم في ايطاليا ، وقيام الارهاب الفاشستي على يد موسوليني وشيعته ، حيث أصدر البناء الحر في ايطاليا عدة قرارات يعارض بها سياسة موسوليني ، وصفتها الصحف الفاشستية بأنها تأييد لنفس المبادىء التي كادت تودي بايطاليا أعني المبادىء الاشتراكية،وعلى ذلك أصدر موسوليني أمره بأن يهجر المحافل كل فاشستي

وقد سلك البناء الحر في بلجيكا نفس هذه السبيل السياسة وأبدى مثل هذه النزعة الهدامة ، واعتنق التفكير الحر . ولم يقف البناء الحر في اسبانيا والبرتغال عند بث الدعوة الهادمة بل خاض غمار الثورة خوضاً وقد أخفقت مساعيه الثورية في اسبانيا ، ولكنها كللت في البرتغال بفوز تام . فمنذ سنة ١٩١٠ الى سنة ١٩٢١ كانت الثورات البرتغالية تنظم باشراف البناء الحر وجمعية « الكوربوناريوس » السرية ، وهما اللتان دبرتا مقتل الملك كارلوس وولده والملكة اميلي وزوجها ، وكان من زعماء الجمهورية الجديدة مجالياس ليما الاستاذ الاعظم للمشرق الاعظم البرتغالي . والبناء الحر هو الذي دبر مقتل السنيور بايس رئيس الجمهورية في سنة ١٩١٦ ، وكذلك مقتل غيره من الزعماء والرؤساء ، بل ان الحكومة البرتغالية الحالية لا تخفي صبغتها البنائية ، فهي تطبع المربع والبرجل فوق أوراقها المالية

١٢ ـ وبينما البناء الحر في اسبانيا والبرتغال يخوض غمار الاضطرابات الثورية والفوضوية ، اذا به في شرق أوربا يعتنق الاشتراكية المركسية (الشيوعية) ، ويعمل في الغالب باشراف اليهود وتدبيرهم . وقد نشرت في المجر بعد سقوط حكومة بيلا كون الشيوعية وثائق تؤيد أن الاشتراكية اجتاحت جميع المحافل ، وان نظريات ماركس وانجلز كانت تلقن الى اخوة البناء الحر منذ بدء هذا القرن ، ويدعون الى نبذ المثل الخيالية « اليتوبيا » لان مصالح الكتلة العاملة تتعارض أشد المعارضة مع مصالح

الطبقات الاخرى ، ولا يمكن تحقيق هـذه المصالح الا بالجهاد الدولي . وقد كانت حكومة كارولي ثمرة لهذه الدعوة ، ومن ثم استطاعت العناصر المتطرفة أن تنمو وأن تشق طريقها الى الثورة

كذلك اتخذ البناء الحر في أنحاء أخرى من شرق أوربا صبغة سياسية قومية ، فقد نشأت حركة تركيا الفتاة في محافل سالونيك باشراف المشرق الاعظم الايطالي ، وهذه الحركة هي التي اعتمد عليها مصطفى كمال بعد في وثبتـه لتحطيم نير الاستعمار الاوربي الذي دفع باليونان الى غزو الاناضول ، وانقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية الذاهبة لينشىء منها تركيا الحديثة الناهضة . ومما يلفت النظر أنه ما زالت توجد في بلدان المشرق آثار من الجمعيات السرية الشرقية القديمة ، كالدروز مثلا ، وهم الذين يمكن وصفهم بحق أنهم بناؤو الشرق ، فنظامهم الخارجي ، ومراتبهم تشابه مراتب البناء الحر في الامم الغربية ، ومع ذلك فقد بلغ من حرصهم في التكتم أن قلما يستطيع انسان أن يقف على حقيقة مبادئهم السرية ، وان عرفت عنهم بعض أمور أوردنا خلاصتها فيما تقدم

١٣ ــ بقيت كلمة عن البناء الحر البريطاني ، فهو يختلف كما رأينا في نظمه ونزعته وغاياته عن المشرق الاعظم . والمعروف ان البناء في بريطانيـا هيئة إنسانية تعمل لتخفيف آلام البشر وتحقيق التضامن والاخاء . وأهم من ذلك وهي نقطة الخلاف الجوهرية ان البناء البريطاني غير سياسي في نزعته ولا غايته في القول وفي الفعل ، واحدث دليل على ذلك ما ورد في تقريره الذي أصـدره مجلس المحفل الاكبر في ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٣ قبيل إجراء الانتخابات التي أسفرت عن قيام حكومة العمال من انه « يحظر في الاجتماعات البنائية المناقشة في كل امر ذي صبغة سياسية ، ويجب ألا يستخدم البناء لاي غرض شخصي او سياسي متعلقـاً بالانتخابات ، وان كل محاولة يقصد بها زج البناء الى غمار المعركة الانتخابية يعتبر خروجاً خطيراً على نظم البناء »

وهذه النزعة قديمة في البناء البريطاني ، كذلك لا يعتنق البناء البريطاني نزعة دوليـة ، وفكرة النظم الدولية للبناء ترجع الى سنة ١٨٨٩ حينما قرر مؤتمر البناء في باريس ان يحيي ذكرى الثورة الفرنسية ، بيـد أنها لم تخرج الى حيز الفعل الا في مؤتمر جنيف الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٠٢ إذ قرر منـدوبو المحافل ، والمحافل العظمى ، والمشارق العظمى إنشاء مكتب دولي للشؤون البنائية ، ووافق على هذا القرار

محافل عشرين دولة . ولم يشترك البنـاء البريطاني في هذا المؤتمر او غيره من الحركات المماثلة

وعلى ذلك فقد خاصم البناء البريطاني المشرق الاعظم منذ البداية بسبب مبادئه ونزعاته التي تعتبر خروجاً على تعاليم الطائفة الاصلية وان كانت هذه الخصومة شكلية في الظاهر ولم تقترن ببوادر عنف ولا يعرف عنها العالم الخارجي سوى النزر اليسير

وإذ كان البناء البريطاني بعيداً عن اهواء السياسة ، فهو بعيد عن النزعات الثورية ايضاً . اما نزعته الدينية فهي حرية الاعتقاد كما رأيت ، وهو لذلك بعيد عن تعضيد هذه الدعوات العنيفة التي يقصد بها الى هدم التعاليم والمعتقدات الدينية

فردريك الكبير والجمعيات السرية

(١) فردريك والبناء الحر . جمعية الرقابة الصارمة (٢) تجديد جمعية الفرسان . الدور الذي لعبه فردريك وفولتير في ذلك . فردريك ينشيء مراتب جديدة للبناء ويجوز الى أرفعها (٣) آثار سياسة فردريك . دائرة المعارف من عمل البناء الحر . وحي البلاط البروسي (٤) جمعية صفوة الاحبار . رسومها ومراتبها . بعض الجمعيات الاخرى. استتارها بالبناء الحر . اتحاد المحافل . سافالايت دي لانج . الجمعيات مهبط وحي خفي

١ ـ كان فردريك الكبير قبل ارتقائه العرش البروسي يسخر من البناء الحر ويصفه بأنه لعبة لاعب ، غير أنه في سنة ١٧٣٨ أي حينما كان ولياً للعهد اعتزم فجأة أن يتعرف أسرار البناء الحر ، فجاز رسوم الالتحاق بالطائفة على عجل في ليلة ١٥ أغسطس أثناء مروره بمدينة برونسفيك . وتم الاحتفال في أحد الفنادق على يد وفد انتدبه لذلك كونت فون ليبه بيكابورج عضو محفل همبورج . ثم نرى فردريك في يونيه سنه ١٧٤٠ أي بعد أن ارتقى العرش رئيساً لمحفل كارلوتنبرج ، ونراه يضم الى المحفل اثنين من اخوته وصهره ، ودوق ولهلم فون هولشتاين بك . ثم أسس البارون فون بيلفلد والمستشار يوردان بأمره محفلا في برلين باسم « العوالم الثلاثة » ولم تأت سنة ١٧٤٦ حتى كان يسيطر على أربعة عشر محفلا ثانوياً . وفي سنة ١٧٤٠ أيضاً دعا فردريك فولتير الى زيارته ، وكان يكاتبه قبل ذلك بأعوام ، فلبى فولتير دعوته وزاره لاول مرة . ويقال ان فولتير لم يكن قد التحق حينئذ بالبناء الحر وانه لم يلتحق به الا في سنة ١٨٧٨ حينما انضم الى محفل الاخوات التسع في باريس ، غير أن الظاهر أنه كان ينتمي قبل ذلك الى هيئة بنائية أخرى . وعلى أي حال فقد تلى زيارة فولتير لالمانيا حادثان مهمان في البناء الحر الفرنسي أولهما انشاء الدرجات الاضافية ، والثاني قدوم مندوب الماني بناء هو فون مارشال الى باريس بمهمة انشاء هيئة جديدة من فرسان المعبد واحياء هذه الهيئة . ثم تبعه بعد ذلك بعامين البارون فون هونت ليتم نفس هذه المهمة . وأذاع فون هونت حينئذ دعوة حاول أن يثبت فيها أن التهم التي أسندها فيليب الجميل والبابا الى طائفه الفرسان كانت تهماً كاذبة مزورة لفقها فارسان جردتهما الهيئة من امتيازاتهما لجرائم ارتكباها ، وانتهى في سنة ١٧٥١ بأن أسس هيئة

جديدة من الفرسان باسم « الرقابة الصارمة » Stricte Observance . وكانت « الرقابة الصارمة » في الواقع جمعية ألمانية محضة قوامها رجال من الطبقات المتنورة والارستوقراطية، وأنشئت مراتبها على نمط مراتب الفروسية القديمة ، مثل فرسان القمر ، والكوكب والشمس الذهبية وغيرها ، وانضم اليها جماعة من الامراء والوزراء الامار مثل كارل أمير هاسه ، ودوق برونسفيك، والوزير البروسي فون بشوفسفردر وغيرهم . وكانت الهيئة ظاهرة معروفة يعودها في الظاهر جماعة من ذوي الجاه والنفوذ ، غير أنها كانت في الواقع آلة في أيدي زعماء مستورين يسيرونها في الخفاء . وقد أشار ميرابو الى ذلك في كتابه عن تاريخ الملكية البروسية ، بقوله : « ظهر حوالي سنة ١٧٥٦ ، رجال كانما خرجوا من بطن الارض، يزعمون أنهم رسل رؤساء مجهولين وقد خولوا حق اصلاح طائفة البناء الحر ، واعادتها الى مقامها القديم . وقد وفد واحد من اولئك الرسل يسمى يونستون على فيمار وبينا واستقر هنالك ، فاستقبله الاخوة (البناؤون) أحسن استقبال ، وقد خلبهم أمل الاسرار العظيمة ، والاكتشافات الهامة التي لم تكشف اليهم قط »

وقد ورد في مذكرات أمير هاسه ان ذلك الرجل المدعو يونستون الذي كان يلقب نفسه « بمقدم الطائفة الاكبر » هو يهودي يدعى لايخت ، ويقول عنه جولد في تاريخه (البناء الحر) : انه كان أفاقاً خبيثاً وداهية في الخداع والدس . بل كان في الواقع خطراً على الطائفة حتى ان فون هونت بعد أن استخدمه حيناً حرض به فزج الى قلعة فارتبورج حيث توفي فجأة مسموماً على ما يظهر

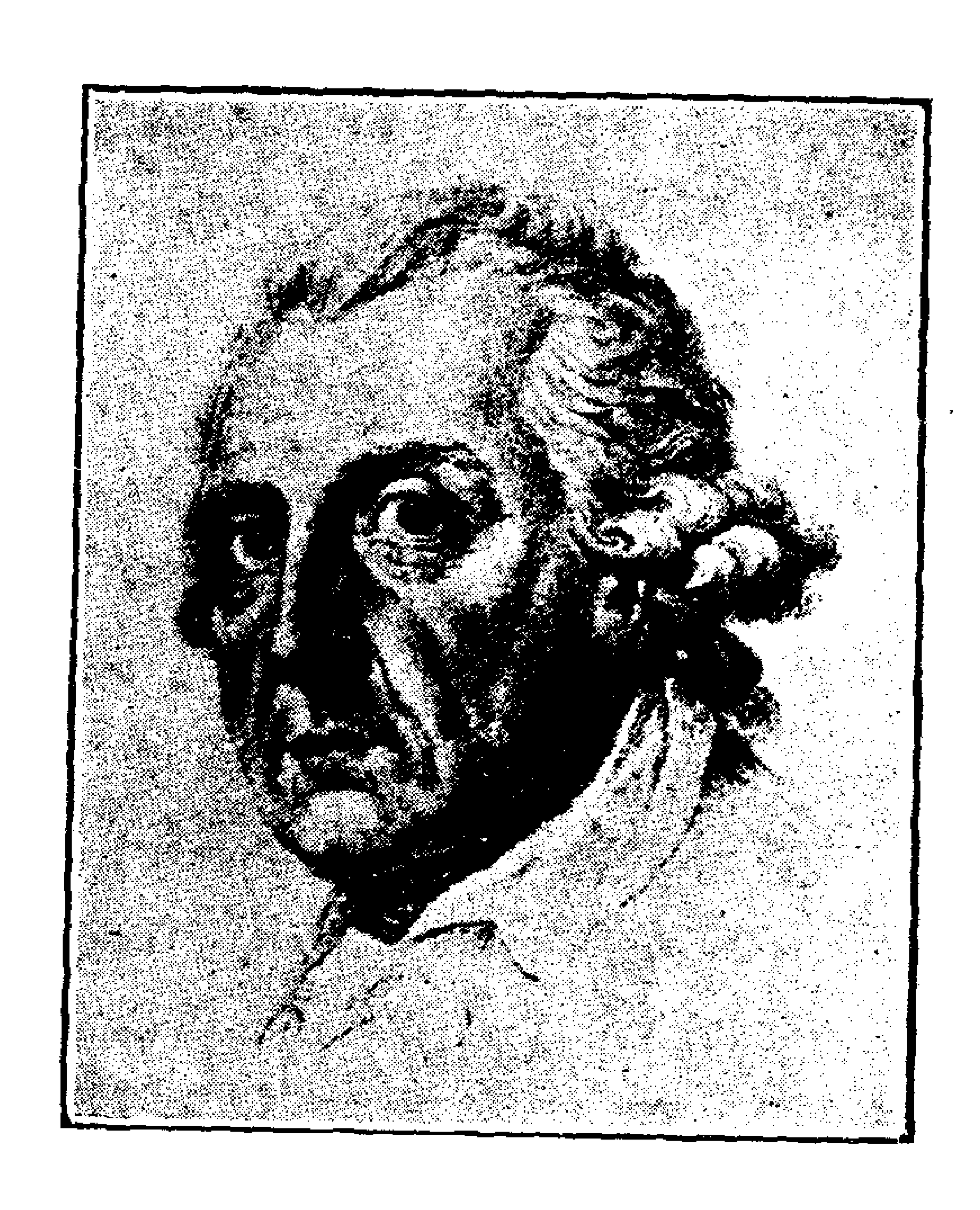
٢ ـ ولتعاقب هذه الحوادث على هـذا النحو مغزى ظاهر ، فهي كلها ثمرة الدعوات السرية المختلفة التي كانت تجتاح أوربا وتتذ لغايات وأغراض خفية ، ومن المهم أيضاً ما ورد بعد ذلك في تاريخ طائفة فرسان المعبـد الذي ظهر في أوائل القرن التاسع عشر وأشرنا اليـه في فصل سابق من أن فردريك الكبير كان من أعظم أعضاء هذه الطائفة ، وانه قدس في سنة ١٧٣٨ أي في نفس الوقت الذي انضم فيه الى البناء الحر وهذا مما يؤيد علاقة فردريك بطائفة الفرسان في هذا العهد

وعلى ذلك فاما أن تكون هذه الوثائق التي أصدرت عن جمعية فرسان المعبد في أوائل القرن التاسع عشر صحيحة بمعنى ان الجمعية استمرت في الوجود حقيقة منذ الحروب الصليبية ، وان مرتبة الصليب الوردي قد نقلت على يد الفرسان الى ايكوسيا ثم نقلها الشفاليه رامسي الى فرنسا بعد ذلك بأربعة قرون ، وان الاستاذ الاعظم

للجمعية في ذلك الحين كان الدوق دورليان وصي المملكة ، وان فون هونت قد نقل بعد ذلك من ألمانيا درجات جديدة للفرسان بأمر فردريك الكبير

واما ان تكون هذه الوثائق مزيفة ، كما يرى البعض ، زيفها في أوائل القرن الثامن عشر زعماء « الرقابة الصارمة » في المانيا ، وان فولتير وفردريك الاكبر كانا أعظم أولئك الزعماء المستترين

وسواء صح القول الاول أو الثاني فان فردريك الكبير قد ادى في الحالتين اهم دور في تجديد الفرسان بمساعدة فولتير الذي يشيد بقضية الفرسان في رسالته عن الاخلاق Essai surles Moeurs



فردريك الكبير ملك بروسيا

وظاهر ان الاهواء والدسائس السياسية هي التي حملت فردريك الكبير على ان يزج بنفسه في هذه الحركات السرية ، فقد رأى بادىء بدء ان البناء الحر قوة سرية يمكن الاعتماد عليها ومن ثم كان التحاقه الفجائي به ، غير انه رأى تقوية لنفوذه ان يستتر بالمعرفة العليا وان يستمسك باذيال الخفاء ورأى في نظام الفرسان حجاباً نافعاً يحقق هذه الغاية . كذلك لا ريب في انه لم يجد بين علماء اوربا من هو اكثر

الماماً من صديقه فولتير باخبار العصور القديمة والوسطى ، واشد عداوة للكنيسة الكاثوليكية ، واوفر كفاية لاحياء طائفة قديمة انشئت لمحاربة تعاليمها . ومن ثم كان استدعاؤه للفيلسوف على عجل ، ومن ثم كان تزييف الوثائق اللازمة على يد مزور ماهر . يؤيد ذلك ما رأيناه من قدوم فون مارشال الى فرنسا لتأسيس الفرسان من جديد ، وكذلك إدعاء فون هونت بعد ذلك انه قد ظفر باسرار الطائفة الحقيقية كما تنوقلت منذ القرن الرابع عشر ، بل لعل هذه الاسرار والوثائق التي أشار اليها فون هونت هي بعينها التي نشرت في أوائل القرن التاسع عشر، وأنها كانت من صنع فولتير نفسه بمعاونة يهودي يجيد كتابة السريانية ، وكثيراً ما كان فردريك الكبير يستخدم اليهود للقيام بمختلف المهام ولا سيما المريبة منها



فولتير

ومهما كان من الامر فان اهتمام فردريك الكبير بامر البناء الحر والسيطرة على حركاته يبدو مضطرداً خلال القرن الثامن عشر، ففي سنة ١٧٨٦ حينما أنشئت مرتبة الكمال كان فردريك على ما يقال هو الذي قام برسوم الاحتفال ووضع نظاماً جديدة للطائفة ، ونظم الدرجات ورفع عددها الى ثلاث وثلاثين على النحو الآتي : (٢٦) اميرالرحمة (٢٧) قائد المعبد الاعلى (٢٨) فارس الشمس (٢٩) الفارس الايكوسي الاعظم للقديس اندروز (٣٠) الفارس المنتخب الاعظم لكادوش (٣١) القائد

المفتش المحقق الاعظم (٣٢) الامير السامي للسر الملكي (٣٣) المفتش العام الاكبر الاعظم [1]

وفي الدرجات الاربع الاخيرة يلعب فردريك وبروسيا دوراً عظيما ، وفي الدرجة الثانية والثلاثين يوصف فردريك بانه رئيس البناء الحر الاوربي ، ثم ينال لقب الدرجة الاخيرة فيغدو « المفتش العام الاكبر الاعظم » ويوصف فيليب دوق دورليان وصي المملكة الفرنسية والاستاذ الاعظم للمشرق الاعظم بانه نائبه ومساعده وقد كانت الدرجة الثانية والثلاثون اهم الدرجات الجديدة ، وكان إنشاؤها في الواقع وسيلة لاجتذاب شعب البناء الحر كلها الى مركز واحد ووضعها تحت سلطان رئيس واحد ، ومن ثم كان نفوذ فردريك العظيم في حركات البناء الحر ، واعتباره بطل الطائفة في كل ناحية ، وليس ذلك معنى ان فردريك كان اميراً مخرفاً يخلص لخرافات البناء الحر ، فهو بالعكس لم ينقطع عن ازدرائه والسخرية منه سراً ، بيد انه لم ينقطع ايضاً عن التظاهر باجلاله واحترامه قط ، وذلك تحقيقاً للسياسة التي رسمها من السيطرة على قوى البناء الحر كلها وحشدها لخدمة مآربه وغاياته السياسية

٣ ـ وقد فاز فردريك في سياسته فوزاً عظيما ، فاشتد نفوذ البلاط البروسي في الدوائر والاوساط الفرنسية واجتمعت الحركة العقلية في فرنسا حول فردريك على يد البناء الحر ايضاً ، واخرجت دائرة المعارف الفرنسية الاولى على يد ديدرو ودالمبر وهلفاتيوس وكوندرسيه وغيرهم ، فأثارت دعوة فكرية عظيمة كان لها اثر كبير في عقلية المجتمع الفرنسي قبيل الثورة . وقد كان هذا القاموس الكبير مشروعاً فكر البناء الحر في اخراجه منذ بعيد اي منذ ان أسس المشرق الاعظم في سنة ١٧٣٧ والقى الشفاليه رامسي خطبته الشهيرة التي اقترح فيها ان يتعاون الاساتذة العظام في جميع الامم على حث الاخوة على التعاون لجمع مواد قاموس عام يحتوي كل الفنون والعلوم الحرة المفيدة . فلما انتظمت احوال المشرق الاعظم ، واستطاع البلاط البروسي ان يملك زمامه وناصيته ، أوحى الزعماء المحجبون الى ديدرو وزملائه وكلهم من البنائين الاحرار ان يضعوا قاموسهم العظيم وامدوهم بالنصح والمال ، وطلع القاموس الكبير على المجتمع الفرنسي بكل جديد في العلوم والمعارف ، يفيض هدماً للمبادىء والتقاليد القديمة ، وطعناً في المعتقدات والخرافات الدينية حتى اضطرت الحكومة الى التدخل ووقف اتمامه

---

[1] عددنا المراتب الخمس وعشرين الاولى في كلامنا عن البناء الحر

وكون اخراج دائرة المعارف في القرن الثامن عشر عمل من اعمال البناء الحر ، امر لا ينكره البناؤون انفسهم بل يفخرون به و يشيدون بذكره ، ومن ذلك ما قاله البناء بونيه في مؤتمر المشرق الاعظم الذي عقد في سنة ١٩٠٤ :

« في القرن الثامن عشر كان الانسيكلوبيديون يؤلفون في معابدنا هيئة مضطرمة كانت هي التي وحدها تستمد الصيحة الباهرة التي لم يكن يعرفها الناس يومئذ وهي : « الحرية والمساواة والاخاء » . وقد اثمر البذر الثوري عاجلا بين هذه النخبة ، واتم اخواننا البناؤون المشاهير دالمبر وديدرو وهلفاتياس ودولباخ وفولتير وكوندرسيه تطور العقول وهيأوا العدة لعهد جديد . فلما سقط الباستيل ، كان للبناء الحر الفخر العالي في ان يهب الانسانية ذلك القرار الذي صاغه باخلاص : اعلان حقوق الانسان »

والواقع ان فردريك وخلفاءه من آل هوهنتسولرن كانوا جميعاً يحرصون على استخدام أية حركة أو جماعة تساعد على نشر النفوذ البروسي والسيادة البروسية . وقد استخدم فردريك البناء الحر لذلك الغرض ، واستخدم اليهود والفلاسفة والكتاب من مختلف الامم ، وكل ذلك سعياً الى تحقيق مشروعه العظيم وهو سحق الملكية الفرنسية وفصم محالفها مع النمسا الذي كان يرى فيه خطراً عظيما على حياة بروسيا

٤ ـ في ذلك الحين ظهرت في فرنسا هيئة أخرى تتشح برداء البناء الحر وليست منه . وكان شغف الخفاء كما قدمنا يجتاح اوربا في أواسط القرن الثامن عشر ، وكان للمشعوذين والسحرة مكانة في بعض القصور مثل بلاط بطرسبورج في أيام الملكة حنه دي كورلاند . كذلك كانت الطبقات العالية في المانيا وفرنسا تشغف بدعاوي ما وراء الغيب ، والبحث لاستكشاف الاكسير الذهبي واكسير الحياة والشباب ، ومحاولة الاتصال بالارواح وغيرها من صنوف الخفاء التي اتينا على وصفها . وقد انتظم هذا الشغف في فرنسا الى حركة منظمة ، رأت ان تستتر بالبناء الحر لنشر دعوتها وإخفاء مقاصدها التي كانت تثير ريب السلطات . ففي سنة ١٧٥٤ أنشأ مارتين دي باسكالي او بسكاليس ، وهو بناء من مرتبة الصليب الوردي جمعية « صفوة الاحبار » Elus Cohens التي عرفت فيما بعد بجمعية المارتينيين أو « الشعلة الفرنسية » . وقد وصف باسكالي بأنه يهودي اسباني ، بيد انه اتخذ النصرانية شعاراً لطائفته . ولم تلبث هذه الجمعية ان غدت قوة كبيرة في فرنسا

وكانت رسوم « الشعلة الفرنسية » قسمين اولهما يمثل سقوط الانسان ، والثاني نهوضه ، وهي اسطورة البناء الحر بذاتها . وقد كانت الدرجات شبيهة بدرجات البناء الحر ايضاً ، وهي على الترتيب ، الحبر المتمرن ، الحبر الزميل ، الحبر الاستاذ ، ثم المهندس الاعظم ، والمنتخب الاعظم أو فارس الشرق . وقد بدأ باسكالي جمعيته في مرسيليا وتولوز وبوردو ثم انتقل الى باريس وانتشرت بعد ذلك في جميع مدن فرنسا ، وأنشئت لها محافل عدة كان مركزها الرئيسي في ليون ، وانشئت على أثر ذلك عدة جمعيات أخرى للخفاء مثل «شعلة افنيون» التي أنشأها دوم برنتي في سنة ١٧٦٠ تحت ستار البناء الحر أيضاً ، وقصد أن ينشر بواسطتها تعاليم سويدنبورج . وكانت التعاليم اليهودية السرية تجثم وراء كل هذه الجمعيات ، وكلها تمجد تعاليم الصليب الوردي ورسومه التي رأينا أنها ترجع الى أصل يهودي . وأنشأ البارون فون اكهوفن في ڤينا جمعية تعرف « باخوة آسيا » قيل انها تتمة لجمعية « اخوة الصليب الذهبي الوردي » التي أنشأها في سنة ١٧١٠ راهب سكسوني يدعى صمويل رختر . بيد ان الغموض يحيط نشأة هذه الجمعية وغاياتها ، وكل ما يعرف عنها أنها كانت تضم يهوداً وتركاً وفرساً وأرمينيين ، وان درجاتها ورموزها كانت عبرية ، وانها كانت تعنى بمسائل الاخلاق والطبيعة وفك الطلاسم والرموز ، وان أعضاءها كانوا يقسمون الاخلاص والطاعة العمياء لكل ما يلقى عليهم من التعليمات والاوامر دون معرفة مصدرها والغاية من تنفيذها

وقد ذاع أمر هذه الجمعيات والطوائف في كثير من الدول الاوربية ولا سيما فرنسا حيث شغف الناس بأسرارها وتعاليمها وهرعوا اليها رجالا ونساء ، وتدهورت رسوم البناء الحر ونظمه الى حفلات روحية تحضرها النساء فيصرخن ويغمى عليهن ، وغدت « الشعلة » قوة عظيمة تناهض البناء الحر ، حتى اضطرت جمعيات البناء على اختلافها الى التفاهم والاتحاد ، فانضمت جميعاً في سنة ١٧٧١ الى محفل جديد يعرف «بالاخوة المتحدين» ، وكان ذلك الاتحاد على يد سافاليت دي لانج كبير الخزانة الملكية وكان سفاليت بناء من درجة عالية ، عليماً بأسرار المحافل ، متفقهاً في دسائسها وخفاياها فرأى توثيقاً لعرى الالفة والاتحاد بينها أن يمزج في المحفل الجديد بين طرق المارتينية والشعوذة ، وأن يجتذب اليه الارستوقراطية باقامة الحفلات والمراقص الشائقة فكان يهرع اليها النبلاء والسادة رجالا ونساء دون أن يعلموا أن وراءها تختفي جمعية

سرية هائلة ، ترمي الى تحقيق المساواة فيما وراء قصورهم وبذخهم . وأنشأ سافاليت دي لانج في نفس الوقت رسوماً جديدة هي مزيج من تعاليم سويدنبورج ، وباسكالي ، وأسرار الصليب الوردي ضم اليها زعماء « الاخوة المتحدين » مثل الكونت دي جيلان ، وأمير هاسه ، وكوندرسيه وغيرهم

من صميم هذه الحركة برز أقطاب السحرة والافاقين الذين حيروا قصور هذا العصر ومجتمعاته بافتنانهم في ضروب السحر والسيمياء والشعوذة ، وقد كانوا جميعاً من البنائين الاحرار في الظاهر بيد أنهم كانوا جميعاً ينتمون الى جمعيات سرية أخرى . وقد أتينا على سيرتهم وأعمالهم في فصل سابق . بيد أن الذي نريد أن نلفت اليه النظر هنا ، هو ان الوحي الذي كانت تتلقاه هذه الجمعيات ويتلقاه أولئك السحرة ، كان يرجع الى مصدر غير هذه الجمعيات نفسها ؛ وانه كانت ثمة في الخفاء قوة أخرى تشرف على تلك الحركة برمتها ، وتديرها في كل بلد بما يتفق مع خططها وغاياتها

ما هي هذه القوة الخفية ؟ وما هي الغايات التي كانت تسعى الى تحقيقها ، وتحشد من أجلها الجمعيات السرية ، والسحرة والسيمائيين والافاقين ؟ هذا ما سنحاول أن نبينه في الفصل القادم

مدرسة الكابالا اليهودية

(١) أصل الكابالا . الروح الثورية اليهودية (٢) انتشار التعاليم اليهودية . ظهور شابيتاي أو المسيح المنتظر . اسرائيل البدولي . فرنك وطائفته (٣) مبعث السحرة اليهود . الدكتور فوك وعجائبه (٤) حقيقة مهمة فوك . فوك والشاعر ليسنج . ماذا وراء البناء الحر ؟

١ ـ ان الدور الذي قام به الدعاة اليهود في بث روح الثورة ، وانشاء الجمعيات السرية واثارة الحركات الهادمة عظيم جداً وان كان من الصعب أن نعينه بالتحقيق . فمنذ أقدم العصور نرى أثر التعاليم اليهودية الفلسفية السرية ظاهراً في معظم الحركات الثورية والسرية ، وقد أشرنا الى ذلك في فرص سابقة عدة ، وذكرنا أن المصدر الذي تجتمع فيه التقاليد اليهودية السرية انما هو فلسفة الكابالا وهي كلمة عبرية معناها ما يتلقى ، أعني التقاليد . والكابالا هي مزيج من الفلسفة ، والتعاليم الروحية ، والشعوذة ، والسحر ، متعارف عند اليهود منذ أقدم العصور . وقد ظهر أثر تعاليمها واضحاً في المجتمعات الاوربية . وبالاخص منذ القرن الثاني عشر . وخلاصة هذه التعاليم هي أن الله هو كائن مطلق ، ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث نفسه الى عالم الارواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، وان روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود في النهاية الى الله وتفنى فيه . وكان دعاة الكابالا يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة ، وأسرار الطلاسم والرموز والارقام . وقد أدمجت تعاليم الكابالا وأسرارها ورموزها في وثيقتين عبريتين هما « السفرجزيرا » أو كتاب الخلق ، وهو مجموعة من الاحاديث والخطب رويت على لسان ابراهيم ، و« السفر هازوهار » أو كتاب الضوء المعروف عادة « بزوهار » وقد كتب بأسلوب ارامي يحمل على الاعتقاد بأنه قد وضع في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين المحدثين أنه من تصنيف موسى الليوني الاسباني

وقد رأيت أن أساطير الكابالا ، وتعاليمها ورموزها ، كانت مستقى لمعظم الجمعيات السرية الغربية من فرسان المعبد الى البناء الحر (الماسونية) في وضع نظمها ورموزها ، وانها كانت في الغالب مبعث الوحي لكثير من الطوائف الخارجة والهادمة كاخوة الشيطان ، وأصحاب القداس الاسود ، وطوائف السحرة على اختلاف طوائفهم

وغاياتهم ، وجمعية المسممين ، وغيرها من جمعيات الخفاء التي أتينا على سيرتها

وكون اليهودية مبعث الروح الثورية على كر العصور ، وكون اليهود دعاة الثورة وقادة التقويض والهدم - ذلك مما يقره البحث التاريخي السليم ، واليك ما يقوله كاتب من أعظم كتاب اليهودية هو برنار لازار في كتابه عن «خصومة السامية»[1] : « ان لشكوى دعاة الخصومة السامية أساساً على ما يظهر، فاليهودي يضطرم بروح ثوري ، وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أو لم يشعر » ، والواقع ان الدور الذي لعبه اليهود في الثورات الحديثة ظاهر لا سبيل الى انكاره ، وبالبحث والاستعراض نرى أنه دور مزدوج فهو يستند الى المالية والخفاء معاً . ذلك ان اليهود منذ العصور الوسطى امتلكوا ناصية الشؤون المالية في معظم المجتمعات الاوربية ، وجردوا عليها في نفس الوقت سيلاً من ضروب السحر والخفاء ، وأمدوها بأقطاب المشعوذين والسحرة . وكانوا حيثما هبت ريح الثورة الاجتماعيـة أو السياسية يجثمون من وراء ستار ، ويميلون الى الجانب الظافر ليأخذوا نصيبهم من الاسلاب والغنيمة ، وحيثما كانت الشعوب النصرانية تنهض للخروج على نظمها كان الاحبار والفلاسفة والاساتذة والمشعوذون اليهود يأخذون بناصر الثوار ويؤيدونهم في وثباتهم الهادمة . واذا كان اليهود في معظم هذه الثورات لا يضرمون النار ، ولا يثيرون العاصفة ، فقد عرفوا دائماً كيف يسيرونها لفائدتهم وتحقيق غاياتهم

٢ - في منتصف القرن السابع عشر كانت التعاليم الروحية اليهودية قد نفذت الى جميع أنحاء أوربا . والظاهر أن تيار هذه التعاليم قد تسرب الى أمم الغرب من شرق أوربا ، فمنذ القرن السادس عشر اجتمع اليهود واستقروا في بولونيا ، وظهر هنالك جماعة من السحرة والمشعوذين اليهود تعرف « بالزاركيم» او جماعة « بعل شم » ، والكلمة الاخيرة معناها « سيد الاسم » ومصدرها نظرية كابالية تزعم أن بعض اليهود الذين تتوفر فيهم شروط معينة من القدسية يستطيعون أن يستخدموا الاسم الاعظم دون وازع . « والبعل شم » هو شخص يملك هذه القوة ويستخدمها في كتابة الطلاسم ، ومخاطبـة الارواح ، ومعالجة الامراض وغير ذلك . ثم غدت

(١) خصومة السامية L'Autisémitisme ، تعبير يقصد به عداء الشعوب الارية لليهود ومقاومتها لهم ، وهو تعبير خاطىء في الواقع لان اليهود ليسوا وحدهم بالساميين ، بل يدخل معهم العرب وغيرهم من قبائل سام الاثني عشرة بيد أنه يستعمل اليوم للدلالة على مخاصمة الشعوب الغربية لليهود

بولونيا ، وبالاخص مقاطعة بودوليا مركزاً للحركة الكابالية التي تمخضت هنالك عن سلسلة من فورات الخفاء والشعوذة المدهشة . وفي سنة ١٦٦٦ اضطرب العالم اليهودي من أقصاه الى أقصاه لظهور داعية يسمى شابيتاي تسيبي وهو ابن تاجر أزميري يدعى مردكاي ، زعم أنه هو المسيح المنتظر ، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة



شابيتاي تسيبي

عندئذ في المجتمع اليهودي ، وكانت الاوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح ، ولذلك صادفت دعوة شابيتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوربا ، بل أيدها كثير من اليهود المتنورين وأصحاب الاموال لاغراض سياسية ومالية ، وكان شابيتاي متمكناً من تعاليم الكابالا ، عليما بأسرارها ونظرياتها الروحية ،

بارعاً في ضروب الشعوذة ، وقيل انه كان يأتي الخوارق ، وان جلده كان ينضح المسك ، وكان ينهمك في الاستحمام في البحر ويعيش في حالة ذهول مستمر . وقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شابيتاي الذي انتحل لنفسه لقب « ملك ملوك الارض » الى قسمين : خصوم ، وأنصار . فأما الخصوم فهم الاحبار والدعاة وكان هؤلاء يناصبونه العداء ويكثرون من لعنه والحملة عليه . أما أولئك الذين استهوتهم دعوته وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه فقد انقلبوا عليه حينما سخط منه السلطان وطلب اليه أن يثبت دعواه بأن يستقبل السهام المسمومة بصدره ، فارتد عن اليهودية فجأة وزعم أنه اعتنق الاسلام ، بيد أنه استمر يتقلب في مزاعمه وتعاليمه ازاء المسلمين واليهود طوراً بعد طور فيتظاهر أمام كل فريق بأنه من دينه وحزبه ، وبتلك الوسيلة استطاع أن يغنم مؤازرة نفر من اليهود والمسلمين معاً . غير أن الاحبار اليهود خشوا من دعوته على تعاليم اليهودية فسعوا به الى السلطان حتى أمر باعتقاله وسجنه في احدى قلاع بلغراد ، وهنالك توفي في سنة ١٦٧٦

على أن تحطيم المسيح المنتظر لم يخمد من حماسة أنصاره ، بل استمرت دعوة شابيتاي في القرن الثامن عشر ، وأسفر نشاط المدرسة الكابالية عن فورة جديدة في بولونيا ، فظهر كثير من دعاة الزاركيم وبعل شم ، وكان أشهر أولئك الدعاة اسرائيل البدولي الذي أسس طائفة « الحسديم » في سنة ١٧٤٠ . وكان اسرائيل يخاصم اليهودية الرجعية ، ويرجع تعاليمه الى « الزوهار » ، بيد أنه لم يسلم اطلاقاً بنظرية الكابالا في أن الكون هو صورة من صور الله ، بل زعم أن الكون كله هو الله ، وأن الشر عنصر من عناصر الله اذ ليس الشر خبيثاً في ذاته ولكن في علاقته بالانسان وعلى ذلك فليس للخطيئة وجود مادي . وكان اسرائيل بارعاً في ضروب السحر والشعوذة ، فالتف حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود وتقاليده الاخلاقيــة . ثم ظهر في أثره داعية آخر هو هايلبرن المسمى بجويل بن أوري في ساتانوف وعكف على مزاولة الشعوذة والخوارق باسم الله وجمع حوله نفراً من الانصار ، استمروا بعد وفاته يستغلون سذاجة العامة حيناً

وقد كانت أشهر الجمعيات الكاباليــة طائفة الفرنكيين ، الذين عرفوا أيضاً « بالزوهاريين » ، او اخوان الشعلة لانتمائهم الى الزوهار (كتاب الضوء) ، ومؤسسها هو يعقوب فرنك ، وهو داعية من أمهر دعاة الكابالا وأعلمهم بأسرارها وتعاليمها ، جمع حوله في منتصف القرن الثامن عشر في بودوليا جمهوراً كبيراً من الانصار

والدعاة ، وعاش في بذخ شرقي هائل لم يهتد أحد الى حقيقة مصدره ، وأسس طائفته التي لبثت حيناً « تبث نظريات الالحاد والهدم بواسطة جماعات سرية تماثل في نظامها محافل البناء». ونقم الاحبار اليهود من الزوهاريين نشاطهم في هدم اليهودية، واشتدت الخصومة بين الفريقين ، حتى أعلن الزوهاريون في النهاية خروجهم على اليهودية علناً واعتنقوا النصرانية ومنهم فرنك نفسه ، واتحدوا مع أسقف كامنيك على مقاومة الاحبار واليهودية . غير أن ارتدادهم لم يكن الا رياءً ، وسبيلاً من سبل الهدم خصوصاً وان فرنك كان يذيع بواسطة دعاته في تركيا انه اعتنق الاسلام ، وعلى ذلك قبض عليه في وارسو بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الالحاد والكفر ، وزج به الى السجن حيناً ، فلما اطلق سراحه استمر في دعوته وتجول في أواسط أوربا مع ابنته حوه التي استطاعت أن تؤثر في عقل الامبراطورة ماريا تريزا . غير أنه اتهم بالزندقة أيضاً وأخرج من النمسا ، فانتقل الى ألمانيا واستقر في أوفنباخ بالقرب من فرنكفورت وتسمى بالبارون فون اوفنباخ ، واستأنف بذخه الطائل مما كان يرد اليه من هبات انصاره والمعجبين به . وقد وصف ملمان في كتابه « تاريخ اليهود » بذخ فرنك فيما يلي :

« كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود ذوي الحسن الرائع ، وكان يذاع أن صناديق الاموال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيما من بولونيا ، وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء في عربة تجرها جياد مطهمة ، ويحرسه عشرة أو اثنا عشر فارساً يرتدون الثياب الموشاة بالذهب ، وقد رفعوا الرماح ، ووضعوا في قبعاتهم أهلة أو شموساً أو أقماراً . . . وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود . بيد أنه توفي في سنة ١٧٩١ ، ودفن في بذخ يعدل بذخ حياته »

٣ ـ ونحن نذكر مما تقدم لنا سرده من سير أقطاب السحرة في القرن الثامن عشر أن البارون فون أوفنباخ لم يكن مثلا وحيداً من نوعه ، فهناك شبه عجيب بينه وبين زميليه الشهيرين الكونت سان جرمان والكونت كاجليوسترو ، وقد كان كل يدعي القدرة على الخوارق ويفتن في ضروب الشعوذة ، ويعيش في بذخ عظيم لا يعلم مصدره ، والاول يهودي بلا ريب ، أما زميلاه فقيل انهما يهوديان أيضاً ، وكلهم من دعاة المدرسة الكابالية ، ومن الراسخين في تعاليمها وأسرارها ، وكلهم أنفق أعواماً طويلة في المانيا . ثم ان كاجليوسترو انضم الى جمعية « الرقابة الصارمة » في كهف خفي يبعد قيد أميال يسيرة عن اوفنباخ حيث كان يقيم فرنك ، ويقال فوق ذلك انه

زار في شبابه بولونيا حيث ظهر فرنك . أفليس لنا بعد ذلك أن نستنتج أن أولئك الدعاة الذين عاشوا في عصر واحد وبأسلوب واحد كانت تربطهم رابطة خفية ؟ وأن ليس من ضروب المصادفة المحضة أن يظهر السحرة الكابااليون في بولونيا والمانيا في نفس الوقت الذي يظهر فيه السحرة في فرنسا ؟ وأن ليس من المصادفة أيضاً أن يؤسس فرنك طائفة الزوهاريين « اخوان الشعلة » في سنة ١٧٥٥ أي لعام واحد من تأسيس مارتين باسكوالي لطائفة « الشعلة » الفرنسية في سنة ١٧٥٤ ؟ أليس من المستطاع أن نتعرّف المصدر الذي قذف بسيل السحرة هذا الى غرب أوربا في طوائف المشعوذين التي أسسها هايلبرين واسرائيل البدولي وفرنك،أو بعبارة أخرى في مهاد الكابالا اليهودية ؟ أضف الى ذلك ان أكبر داعية من دعاة الكابالا واخوة بعل شم وهو المعروف « بزعيم الشعب اليهودي بأسره » كان طبقاً للادلة والوثائق التاريخية عضواً في جمعية البناء الحر ، ومتصلا بزعماء الجمعيات السرية ، وانه يهودي لا سبيل الى الريب في يهوديته

هذا الداعية الغريب هو حايم صمويل يعقوب فوك المعروف بالدكتور فوك ، أو دي فوك ، أو فوكون . وقد وُلد في بودوليا في بدء القرن الثامن عشر ، واتصل بالزوهاريين ، ولبث حيناً يزاول ضروب السحر والشعوذة في بودوليا والمانيا .وكان يزعم أنه ذو قدرة خفية ، وانه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة . ويروي المؤرخ ارشنهولتس أنه شهد فوك يأتي أعمالا خارقة في برنزفيك ينسبها الى تبحره في الكيمياء . ثم اضطهد فوك وطورد في فستفاليا وحكم عليه بالحرق لاتهامه بالسحر ففر الى انجلترا ، وهنالك استقبل بالترحاب وطار صيته ، وأذيعت عن قدرته أغرب الروايات ، من ذلك ما قيل من أنه يستطيع أن يبقي شمعة صغيرة تضيء مدى أسابيع ، وانه يستطيع بتلاوة عزيمة أن يملأ قبواً من الفحم ، وان أية حلية يرهنها لدى المقرض تنسل ثانية الى منزله ، وانه أنقذ البيعة اليهودية الكبرى من فتك النار حينما شبت فيها بأن كتب أربعة أحرف عبرية على أعمدة بابها

ظهر فوك في لوندره في سنة ١٧٤٢ معدماً لا مورد له ، بيد انه ما لبث ان أثرى فجأة وبدت عليه امارات البذخ الطائل فاتخذ له قصراً فخماً أقام فيه بيعة خاصة وازدانت موائده بآنية الذهب والفضة ، وفي مذكراته التي ما زالت باقية ما يفيد انه كان يخرج من قصره الى غابة ابنج وهنالك تعقد اجتماعات خفية في قاعة أعدت لذلك وتدفن صناديق من الذهب ، وقيل أيضاً انه كان يركب عربته ذات مرة فانفصلت

احدى عجلاتها فارتاع السائق ولكن فوك أمره أن يسوق مطمئناً واستمرت العربة في سيرها ، والعجلة المنفصلة تتبعها حتى الغابة



يعقوب فرنك

والروايات عن خوارق فوك وقدرته العجيبة كثيرة لا نهاية لها ، وكان مهيباً مبجلاً من المجتمع اليهودي واحباره. ولكن شهرته اثارت نقمة يهودي يدعى امدن هجاه واتهمه بانه من أنصار المسيح الكاذب وانه يستغل سذاجة المؤمنين وكتب عنه الى يهود بولونيا ما يأتي: « لقد نال فوك مركزه بادعائه الوقوف على أسرار الكابالا،

وزعمه القدرة على اكتشاف الكنوز ، وقد خدع باكاذيبه ضابطاً غنياً جرده من ثروته . ويهرع اليه النصارى الاغنياء ويغدقون أموالهم عليه ، ويغدق هو المال من جهته على دعاة طائفته لكي يذيعوا ذكره وشهرته » . ولكن الظاهر ان فوك كان حذراً في علائقه مع النصارى الباحثين وراء الاسرار الخفية اذ يقال انه انكر معرفته لتركيب الاكسير الذهبي من أمير ملكي سأله الارشاد عن تركيبه . وقد اشير في احدى صحف هذا العصر عام سنة ١٧٦٢ الى يهودي متنصر هو أعظم وأخبث محتال في العالم ، قد سجن ونفي من جميع الولايات الالمانية » ويقول الدكتور ادلر ان هذا اليهودي هو فوك بعينه ، بيد انه ليس ثمة ما يؤيد ان فوك كان من دعاة السحر الاسود

وتوفي فوك في ابريل سنة ١٧٨٢ واحتفل بدفنه احتفالا فخماً في احدى مقابر لوندره ومما نقش على قبره : « هنا يثوي الشيخ الشريف، وهو رجل عظيم قدم من المشرق ، وهو حكيم متبحر ، وداعية كابالي . . . وقد طار صيته الى أقاصي الانحاء والجزر النائية . . . »

٤ ـ ومن ثم نرى الفرق واضحاً بين أساليب فوك . وأساليب سان جرمان وكاجليوسترو وفون اوفنباخ ، فبينما يخوض هؤلاء غمار مخاطرات عدة ، ويزاولون الشعوذة والسكيمياء أينما حلوا ، ويزعمون انهم وقفوا على سر الاكسير الذهبي ، اذا بفوك يعمل في هدوء ، وينقطع لمزاولة الاسرار الخفية الهادئة ، ولا يحتك بالدهماء وعامة المغامرين ، أفليس لنا أن نستنتج من ذلك ان فوك كان يشغل منصباً اسمى وارفع أعني منصب القيادة والارشاد ؟ كان فوك بلا ريب احد هذه الرءوس الخفية التي تدبر في الخفاء شؤون الجمعيات السرية ، وتلجأ اليها الجمعيات السرية في استقاء النصح والتعاليم . وقد ظهر ذلك مؤخراً في رسائل نشرت تبادلها سافالايت دي لانج والمركيز دي شيدبيان ، ورد فيها النسبة لفوك ما يأتي :

« ان الدكتور فوك هذا معروف لكثير من الالمان . وهو رجل خارق جداً من كل وجه ، ويعتقد البعض انه زعيم كل اليهود ، ويرجعون كل ما هو غريب ومدهش في حياته وتصرفاته الى غايات سياسية محضة ، وقد أشير اليه في مذكرات الشفاليه راتنسوف باشارات غريبة فذكر انه من اخوة الصليب الوردي ، وقد كانت له وقائع مع الماريشال دي ريشيليو وهو بحاثة كبير وراء حجر الفلاسفة ، وكذلك كانت له سير عجيبة مع البرنس دي روهان جنيه والشفاليه دي لوكسيبورج فيما يختص بلويس

الخامس عشر الذي تنبأ بموته . وهو قطب بين جميع الطوائف المتبحرة في العلوم الخفية . وفي وسع البارون دي جايخن أن يفيدك عنه بمعلومات نفيسة ، فحاول أن تقف على اكثر من هذا في فرنكفورت »

واذاً فهنا نستطيع أن نظفر بلمحة عن واحد من أولئك الدعاة الحقيقيين الذين كانوا يعملون من وراء الجمعيات السرية والذين اخفوا شخصياتهم في غمار من الظلمات والغموض ، ذلك ان فوك لم يكن حكيماً منفرداً بل كان له تلاميذ ينفذون الى الحظيرة ، العليا من الاسرار . والظاهر أن كاجليوسترو وسان جرمان واضرابهما لم يكونوا الا بعض هؤلاء التلاميذ

ثم ان هنالك ما يلقي شيئاً من الضياء على ذلك في حياة الشاعر الالماني جوتهولد ليسنج . قدمنا أن المؤرخ ارشنهولتس تكلم عن بعض خوارق شاهدها من فوك في برنزفيك ، وفي سنة ١٧٧٠ عين الشاعر ليسنج أميناً لمكتبة دوق برنزفيك . وكان يسخر من البناء الحر وتعاليمه بادىء بدء ، غير أنه تحول عن رأيه فجأة والتحق بأحد محافل همبورج في سنة ١٧٧١ ، وفي سنة ١٧٧٨ نشر قصته الشهيرة ناتان الحكيم Nathan der Weise عن مثل البناء الحر . ونظم خمس محادثات عن البناء الحر أهداها الى دوق برنزفيك كبير المحافل الالمانية عنوانها « ارنست وفوك ، محادثات للبنائين الاحرار » Ernest und Falk : Gespräche für Freimauer ورد الحوار فيها على لسان فوك صراحة ووصف بأنه يشغل أسمى مراتب البناء الحر . هذا الى أن صداقة ليسنج مع موسى مندلسون الفيلسوف اليهودي البرليني قد حملت بعض الباحثين على القول بأن مندلسون هو الذي أوحى الى ليسنج بموضوع القصة وصفات أبطالها ، ولكن لمَ لا يكون الموحي بذلك هو فوك نفسه وقد مرّ في برنزفيك وعرض فيها خوارقه ؟

هذه المحادثات تلقي ضياءً واضحاً على المؤثرات الخفية التي كانت تعمل من وراء البناء الحر ، ويوصف فيها غرض البناء الحر بأنه العمل على احداث نظام لا تكون الانسانية فيه ضرورية ، ويرمز فيها ليسنج لنفسه باسم ارنست ، ويشرح فوك فكرته في انشاء دولة عامة أو بالحري دول متحدة لا تفرق فيها بين الناس فوارق قومية أو اجتماعية أو دينية ، وفيها ينعم الانسان بأوفر قسط من المساواة . بيد أن أهم ما يلفت النظر فيها هو تكرار اشارة فوك الى أنه يوجد ثمة وراء البناء الحر شيء أعرق وأعظم في غاياته من جمعية البناء الحر ، وان البنائين الاحرار المحدثين

لا يعنون به في الغالب . ثم يجيب أرنست حينما يشكو من عدم وجود المساواة الحقة في المحافل بالنظر لاقصاء اليهود عنها ، انه أي فوك لا يشهدها ، وان البناء الحر الحقيقي لا يبدو في أشكال ظاهرة،وان المحفل في علاقته بالنسبة للبناء الحر كالكنيسة في علاقتها مع الايمان أو بعبارة أخرى ان الدعاة الحقيقيين لا يظهرون في الميدان . وظاهر من تأمل هذه الشروح أن فكرة الدولة العامة هي المثل الذي اتخذه اللاحكوميون المحدثون قاعدة لنظمهم في تغيير الحياة البشرية ، وانها هي الجمهورية العامة التي غدت شعار الاشتراكية الدولية ، والشيوعية ، ودعاة الثورة العالمية

جمعية الشعلة البافارية

Der Illuminatenorden

(١) طريقة ابن ميمون قدوة الشعلة البافارية . كيف اهتدى اليها فيسهاوبت . قصة كيلمر (٢) من هو كيلمر . الشبه بين أساليب الشعلة وأساليب الاسماعيلية . الشعلة والاساطير القديمة. نصيب فيسهاوبت في ابتكار نظم الشعلة وتعاليمها . رواية ميرابو عن قيامها (٣) غايات الشعلة طبقاً لرواية ميرابو . قول المسيو بارتو . غاياتها طبقاً لوصف فيسهاوبت . أقوال هنري مارتان ولوي بلان . وثائق الشعلة (٤) مثل الشعلة الجديدة . فلسفة فيسهاوبت . تحليله للمجتمع والقومية والوطنية. وسيلته الى تحقيق مثله (٥) فيسهاوبت والنصرانية . طرق الشعلة الدينية (٦) طريقتها في حشد الانصار واذاعة الدعوة . استتار زعماء الشعلة . اقتفاء فيسهاوبت لطريقة ابن ميمون في قيادة الدعاة (٧) استتار الشعلة بالبناء الحر . التحاق فيسهاوبت به وسعيه الى كشف أسراره . روح الشعلة الثوري . فيسهاوبت من أقطاب الهدم (٨) اشتداد بأس الشعلة وانتشار دعوتها . مراتبها ورسومها . افتضاح أمرها وحلها

١ ـ أشرنا فيما تقدم الى أن طريقة ابن ميمون ونظمه كانت مستقى لكثير من الجمعيات السرية الغربية في صوغ نظمها وحشد انصارها وبث مبادئها ، ورأينا كيف كانت هذه الطريقة ترمي الى هدم النظام الاجتماعي وكل المبادىء الدينية والاخلاقية، وكيف نفذت على يد القرامطة والاسماعيلية وتلاميذ دار الحكمة . ونذكر أن العناصر الجوهرية لهذه الطريقة شدة الحرص في قبول الانصار وحشدهم في درجات متعاقبة متدرجة في الثقة والرفعة ، ثم العمل في نفس الوقت لحشد أكبر عدد ممكن من الانصار في كل الامكنة وكل البيئات للاستعانة بهم في تحقيق الاغراض السياسية ، وتلون الدعاة من أجل ذلك في عقائدهم وعواطفهم ليوافقوا بذلك ميول السواد الاعظم ومشاربه ونزعاته لان ما يصلح الافضاء به للبعض قد يثير آخرين ، ويروع نفوساً أقل جرأة وضمائر أشد تأثراً ، وبعبارة أخرى هي حشد جمهور عظيم من الدعاة والانصار من جميع الطوائف والمعتقدات والميول والاخلاق ليعملوا جميعاً لغاية واحدة لا يعرفها سوى الزعماء والقادة

هذه الطريقة الفذة التي ابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي هي التي اختارها آدم فيسهاوبت لتأسيس جمعية من أعظم الجمعيات السرية الحديثة هي جمعية « الشعلة »

أوالشعلة البافارية Der Illuminatenorden نسبة الى مكان ظهورها . بيد أنه يوجد ثمة خلاف على الطريق الذي وصل منه الاستاذ البافاري الى الوقوف على هذه الاساليب الشرقية ، فيقول بعض الباحثين انه تلقاها عن اليسوعيين حيث تربى في معاهدهم ، ودرس على مناهجهم ، وانهم هم الذين بثوا اليه فكرة الشعلة سراً . ويذكر ميرابو في مذكراته عن تاريخ بروسيا أن فيسهاوبت «كان يعجب قبل كل شيء بنظام اليسوعيين الذي يحمل رجالا متفرقين في جميع أنحاء العالم تحت رياسة شخص واحد على العمل جميعاً لغاية واحدة ، وشعر بامكان اتباع نفس هذا النظام في بث آراء وتحقيق غايات تناقض آراء اليسوعيين وغاياتهم تمام التناقض» والواقع أن فيسهاوبت نقل في تأسيس جمعيته شيئاً من نظم اليسوعيين تحقيقاً لخضوع تلاميذه ، وادعاماً لنفوذه ، وان عمل لغايات تخالف غايات اليسوعيين مخالفة تامة وهي غايات كان يجهلها أنصاره ويعملون لها في نفس الوقت دون أن يشعروا بذلك

وهناك رواية أخرى هي أن فيسهاوبت تلقى وحيه من تاجر يوتلندي يدعى كيلمر وان كيلمر هذا قد تجول في المشرق حيناً وأنفق في مصر عدة أعوام ثم عاد الى أوربا ليحشد الانصار لتعاليم سرية مانوية وقف عليها في المشرق ، فعرج أثناء عوده على مالطة وهنالك التقى بكاجليوسترو (يوسف بلسامو) ، وأثار بدعوته اضطراباً في الجزيرة اضطر فرسانها الى ابعاده عنها فسافر الى افنيون وليون حيث استمال بعض التلاميذ من طائفة «الشعلة» الفرنسية . ثم سافر بعد ذلك الى المانيا فالتقى بفيسهاوبت ولقنه تعاليمه السرية فانقطع فيسهاوبت أعواماً لدرسها ، وتنظيم مذهبه . وفي أول مايو سنة ١٧٧٦ أسس طائفته باسم « الشعلة » ، واتخذ اسم « سبارتاكوس »

٢ ـ فمن كيلمر هـذا ؟ ان أشد ضروب الغموض تحيط حقيقته ، بيد أنه يوجد ثمة ما يدل على أنه يهودي من دعاة الكابالا الذين كانوا يحركون السحرة والمتآمرين في الخفاء من وراء الجمعيات السرية التي ينتمون اليها ، ويرى دي كانتليه مؤرخ الجمعيات السرية أن كيلمر هو نفس التوتاس الذي يصفه لجبيه في كتابه « تاريخ الخوارق » « بأنه تلك العبقرية الشاسعة التي تكاد تكون سماوية ، والتي حدثنا عنها كاجليوسترو في منتهى الخشوع والاعجاب . ولم يكن التوتاس هذا شخصاً خيالياً ، فقد جمع مجلس التحقيق في رومة كثيراً من الادلة على وجوده دون ان يعرف متى وجد وأنى ذهب لانه كان يختفي اختفاء الطيف ويتبدد كالسحاب » ويضيف دي كانتليه الى ذلك أن التوتاس كان ارمينياً وانه استخرج مذهبه المشتق من تعاليم المانوية من مصر والشام

وفارس ، فاذا صحت هذه الرواية فقد يكون كيلر أو التوتاس هذا داعية من دعاة احدى الجمعيات السرية الشرقية التي قامت على أنقاض الاسماعيلية واعتنقت تعاليمهم . بل ان في مذكرات « الشعلة » ذاتها ما يشير الى بعض التعاليم المانوية ، أضف الى ذلك ان مراتب « الشعلة » وأساليب فيسهاوبت تشبه مراتب ابن ميمون وأساليبه شبهاً عجيباً ، فكلاهما يعني بالهدم والدس السياسي أكثر مما يعني بالخفاء والشؤون الروحية ، ولذلك لا نجد في نظم فيسهاوبت ما نجد في البناء الحر من الخرافات والتعبيرات اليهودية ، بل ان فيسهاوبت لا يشير الى كل ضروب الشعوذة والخفاء والسحر وما اليها الا بالسخرية والاحتقار ، ولا يعتبر البنائين الصليبيين واليسوعيين سوى أعداء يجب القضاء عليهم . واذا كانت التعبيرات المشتقة من مصر القديمة تبدو في نظم الشعلة وتطلق الالقاب القديمة على بعض المراتب مثل « ابوبت » « وهيروفانت » فان ذلك لا علاقة له بنظريات فيسهاوبت أو تعاليمه فلم تكن الصيغ العتيقة سواء كانت مصرية أو فارسية او نصرانية الا حجاباً تتقنع به الشعلة لتخفي به غاياتها الحقيقية وهي غاية مادية ترمي الى هدم نظام المجتمع بأسره ، وعلى ذلك فما اشتقت الشعلة من القديم سوى روح الهدم الذي هو ظاهرة وخاصة للنظم الشرقية التي نقلت عنها وهو طور جديد للجمعيات السرية الاوربية بل هو في الواقع فاتحة عهد جديد في ميولها واتجاهاتها . ويشير فيسهاوبت نفسه الى ذلك في مذكراته حيث يكتب الى زميل يرمز اليه بكاتو ما يأتي :«احرص قبل كل شيء على الاصل وعلى العلامة المبتكرة O . ما استطعت » ثم يقول في موضع آخر « ان ذروة الغموض والخفاء يجب أن تكون في جدة الشيء ، وكلما كان العالمون به قليلين كلما كان خيراً وأفضل »

هذا الزعم باكتشاف ضرب جديد من ضروب الحكمة والاسرار القديمة هو الحجة الخالدة التي يستتر وراءها أعضاء الجمعيات السرية والامر الوحيد الذي لا يذكر قط هو حقيقة الافراد الذين يتلقون منهم الوحي والاوامر : ويزعم فيسهاوبت أنه . استقى كل شيء بالدرس المستفيض والبحث العميق في الكتب القديمة وان نظم الشعلة كلها وأساليبها وتعاليمها انما هي من ابتكاره ، وانه هو المستأثر بادارتها وتوجيهها ، ويؤكد ذلك في مذكراته في فرص عدة . ولو ان الامر كذلك لكان فيسهاوبت عبقرية عظمى وعلماً طائر الصيت لان الشعلة في الواقع من أعظم الجمعيات السرية وأوفرها دهاء وكفاية ، ولكان اسمه ذائعاً بين الخلف بدلا من كونه غامضاً مجهولا الا من الخاصة . والحقيقة أن فيسهاوبت كان داهية وكان عبقرية غير أنه

اختص بدهائه وعبقريته ما خفي وغمض من التعاليم والغايات . ولم تكن « الشعلة » ونظمها العجيبة مع ذلك من خالص ابتكاره ، ولم يكن سوى واحد من جماعة اختصته بالثقة والنفوذ اعتماداً على ذكائه ودهائه

وفي كتاب ميرابو عن المملكة البروسية ما يلقي بعض الضياء على ذلك . فميرابو يمتدح « الشعلة البافارية » ويذكر فيسهاوبت بالاسم ويوضح كيف أن الجمعية نشأت في مهد البناء الحر على النحو الآتي :

« انتهى محفل تيودور في ميونيخ حيث كان يوجد قليل من الرجال ذوي الرءوس والالباب بأن سئم وعود البناء الحر الخلابة ، وعراكه المستمر ، ولذلك قرر الزعماء أن يؤسسوا على أنقاض محفلهم جمعية سرية أخرى أسموها جمعية الشعلة ، واشتقوا نظمها من نظم جمعيه يسوع في حين أنهم يقصدون بتطبيقها الى غايات مناقضة »

وينسب ميرابو هذه الواقعة الى سنة ١٧٧٦ وهو نفس العام الذي أسس فيه فيسهاوبت جمعيته الجديدة . والواقع ان فيسهاوبت لم يلتحق بالبناء الحر بصفة رسمية الا في سنة ١٧٧٧ ، وقد التحق به ليكشف ما استطاع من أسراره ، وهذا مما يدل على أنه وان لم يكن عضواً في محفل تيودور قبل ذلك فقد تلقى الوحي بتأسيس « الشعلة » من ناحية أخرى

٣ ــ ماذا كانت أغراض الشعلة ؟

يقول ميرابو ان الجمعية الجديدة أنشئت للسعي الى تحسين نظم الحكومة والتشريع وان من قوانينها ألا تضم اليها أحداً من الامراء قط مهما كانت فضائله وخلاله وانها كانت ترمي الى ما يأتي :

« الغاء رق الفلاحين ، وكل العادات والامتيازات التي ترهق الانسانية . . . ، وتحقيق التسامح العام لكل الافكار الدينية . . . ، وسحق كل الاساطير والخرافات الروحية ، وتعضيد كل ضروب الحرية . . . »

ويشير المسيو بارتو في كتابه عن ميرابو الى ان غاية الشعلة البافارية كانت هي « الاصلاح الاجتماعي والسياسي » ، على مثل يشبه العمل الذي قامت به الجمعية الدستورية الفرنسية أثناء الثورة ، وهو تصريح اذا صح كان غاية في الاهمية اذ معناه ان البرنامج الذي نفذته الجمعية الدستورية في سنة ١٧٨٩ قد وضع معظمه في محفل من

محافل البناء الحر الالماني وكان نواة لقيام الشعلة في سنة ١٧٧٦، وان أثر الشعلة في الثورة الفرنسية كان عظيماً

ثم ان فيسهاوبت يشرح غاية الشعلة بنفسه في العبارة الآتية : « الجمع بين جميع البشر من جميع الانحاء برابطة خالدة لتحقيق مثل أعلى لجميع البشر من جميع الطوائف وجميع الاديان رغم تباين آرائهم وأهوائهم ، وحملهم جميعاً على تقديس هذه الرابطة ، وحب هذا المثل الى حد أنهم يعملون جميعاً كرجل واحد »

فما هو هذا المثل الاعلى الذي يشير اليـه زعيم الشعلة ؟ ان فكرة الاصلاح الاجتماعي التي يشير اليها ميرابو تفيض من بيانات الشعلة وكتاباتها منذ أن تولى فيسهاوبت زعامتها وادارتها ، وتتحول مبادىء الشعلة الى مذهب من الفلسفة الاباحية يلخصه المؤرخ الفرنسي هنري مارتن فيما يلي :

«ان فيسهاوبت قد صاغ من سخريات روسو الانسانية من بدعة الملكية والمجتمع نظرية عامة ، ولم يحسب حساباً لقول روسو باستحالة سحق الملكية والمجتمع متى أنشئا، بل اختار أن تكون غاية الشعلة الغاء الملكية ، والسلطة الاجتماعية ، والقومية ، والرجوع بالجنس الانساني الى الحالة السعيدة التي كان فيها أسرة واحدة لم تكن ذات حاجات خصوصية وعلوم عقيمة ، وحيثما كان كل أب كاهناً وقاضياً . ولسنا ندري كاهن أي دين اذ نجد بالرغم من اشاراتهم الكثيرة الى الـه الطبيعة ما يدل على أن فيسهاوبت مثل ديدرو وهولباخ لم يكن له آلـه سوى الطبيعة ذاتها . وقد كان طبيعياً أن تثب من تعاليمه فلسفة ما فوق الهجيلية ، ونظم الفوضى التي عصفت حديثاً بفرنسا والتي تبدو عليها مسحة أصلها الاجنبي »

وقد أيد هذه الخلاصة عن أغراض الشعلة الكاتب الاشتراكي الكبير لوي بلان الذي يصف فيسهاوبت « بأنه من أعمق المتآمرين الذين عرفهم التاريخ » . وأشارت القصصية الكبيرة جورج ساند وهي اشتراكية من أصدقاء البناء الحر الى « مؤامرة الشعلة الاوربية » ، والى النفوذ الهائل الذي تملكه الجمعيات السرية الالمانية

وهنالك من ينفي عن الشعلة وعن فيسهاوبت تلك الغايات الهادمة ، ويقرر ان رجال الشعلة كانوا من ذوي الخلال الرفيعة والانسانية الخالصة ، وكانت آراؤهم التي عملوا لغرسها هي التي كان يرحب بها مجتمع عصرهم . على ان هذا الرأي يناقض ما ورد في وثائق الشعلة الرسمية التي نشرت في ثلاثة أسفار هي :

(١) Einige Originalschriften des Illuminatenordens ـ بعض الوثائق الاصلية لجمعية الشعلة

(٢) Nachtrag von weiteren Originalschriften ـ تكملة من وثائق أخرى

(٣) Die neuesten Arbeiten des Spartacus und Philo in dem Illuminatenordens ـ أحدث أعمال سبارتاكوس (فيسهاوبت) وفيلو في جمعية الشعلة



آدم فيسهاوبت

وقد نشرت هذه الاسفار الثلاثة في ميونيخ بأمر مختار بافاريا بين سنتي ١٧٨٧ ، ١٧٩٤ وتحتوي على صور الاوراق والمراسلات التي ضبطتها الحكومة البافارية في منزل عضوين من أعضاء الشعلة هما سفاك وباسوس على أثر مطاردتها وحلها تنفيذاً لقانون الحكومة البافارية الذي قضى بحل جميع الجمعيات السرية . ففي هذه الوثائق التي لم ينازع في صحتها أحد يشير فيسهاوبت مراراً وتكراراً الى غايات التقويض والهدم التي ذكرناها في عبارات شاملة غامضة

٤ ـ هذه الغايات هي المثل العليا للشعلة . وطبيعي أن يكون كتمان هذه المثل والتظاهر بعكسها من أساليب الجمعية السرية التي اشتقت من نظم ابن ميمون . ففي

بيانات الشعلة وكتاباتها نفراً عن الاخاء العالمي ، والكمال البشري ، وغيرهما من المثل الشعرية الجميلة ، ثم نرى في ثبت أعضائها نفراً من أعلام الرجال استهوتهم هذه المبادىء السامية ، ونرى فيسهاوبت يبدو في رسائله نصرانياً مخلصاً بينما يعمل في الخفاء لهدم النصرانية ، ولا يكشف عن نياته الا نادراً ، وفي غموض وخفاء كذلك نرى برنامج الشعلة الرسمي خلوًّا من الاشارة الى أية فكرة هادمة ، ونراه بالعكس يحتم على الاعضاء التعهد بالامتناع عن مهاجمة الدولة أو الدين أو الأخلاق »

ومع ذلك فقد كان لفيسهاوبت مثل سياسية ودينية جديدة . أما المثل السياسية فلم تكن سوى فكرة « اللاحكومية » الحديثة القائلة بأن يحكم الانسان نفسه بنفسه وبأن تسحق كل حكومة وكل حاكم . بيد أن فيسهاوبت يجانب كل فكرة في الثورة والعنف ولا يرى لتحقيق فكرته سوى الوسائل السلمية المحضة . واليك كيف يعرض فكرته في احدى رسائله :

« ان أول مرحلة في حياة الجنس البشري بأسره هي الوحشية ، هي الطبيعة الخشنة التي تكون الاسرة فيها المجتمع الوحيد ، وفيها يخمد الجوع والعطش بسهولة . . . فيها يتمتع الانسان بأبدع وأثمن النعم أعني المساواة والحرية بأوسع معاني التمتع . وفي هذه الحياة كانت الصحة حالته الطبيعية . . . وكان البشر سعداء لم يتنوروا بعد الى الحد الذي يفقدون فيه سلام العقل ، والى حيث يعانون من أسباب شقائنا النكدة أعني شهوة السلطان . . . والحسد . . . والمرض ، وكل نتائج الخيال »

ثم يقول فيسهاوبت ، لما ازدادت الاسر ، وأخذت أسباب العول في القلة ، غاضت الحياة البدوية ، وأنشئت الملكية ، واجتمعت الاسر بعضها الى بعض ، وأخذت تنافس بعضها البعض . وهنا كان مصرع الحرية ، ومصرع المساواة ، وهنا شعر الانسان بحاجات جديدة . ثم انضوى البشر تحت وصاية الملوك انضواء القصر ، ويجب أن يبلغ الانسان رشده ، وأن يتحرر من هذه الوصاية ليحكم نفسه بنفسه . ثم يتساءل : « ما هو وجه الاستحالة في أن يبلغ الجنس البشري غاية الاهلية لرعاية نفسه ؟ ولماذا يقاد الى الابد مخلوق يستطيع أن يسير من تلقاء نفسه ؟ »

يجب على الناس أيضاً أن يعرفوا الاستقلال لا عن الملوك فقط ، بل عن بعضهم البعض ، يقول فيسهاوبت « فمن يحتاج الى آخر فهو متوقف عليه ونازل عن حقوقه . وعلى ذلك فقلة الحاجة هي أول خطوة في سبيل الحرية ، ولعل المتوحشين وصفوة المتنورين هم بذلك الاحرار من البشر فقط . ان فن تحديد الحاجات البشرية

بالتدريج هو في نفس الوقت فن العمل على تحقيق الحرية »

ويصف فيسهاوبت شر القوميـة في قوله : « لمـا نشأت الشعوب والامم لم يبق العالم بعد أسرة كبيرة ، ومملكة واحدة بل مزقت علاقته الطبيعة الـكبرى . . . وحلت القومية مكان الحب البشري . . . وغدت فضيلة أن يمجد الانسان وطنه دون اعتبار لاي كائن آخر لم يوجد في حظيرته . وتطبيقا لهذا المبدأ السخيف يحتقر الاجانب ويحمل عليهم . وقد سميت هذه الفضيلة «بالوطنية». . .ثم وثب من الوطنية التمركز، وروح الاسرة ، والاثرة أخيراً . . . فاسحق الوطنية يعرف الناس بعضهم بعضاً بحيث يغيض توقف بعضهم على بعض وتعظم صلة الاتحاد . . . » ثم يشير الى الوسائل التي يمكن أن تحقق بها هذه المثل في قوله : « ان هذه الوسائل هي مدارس سرية للحكمة هي من أقدم العصور محفوظات الطبيعة والحقوق البشرية ، وعلى يدها سوف ينجو الانسان من عثرته ، وتختفي الملوك والامم من الارض بغير ما عنف ، ويصبح الجنس البشري أسرة واحدة ، والعالم مأوى العقلاء ، والاخلاق وحدها هي التي تحدث هـذا التغيير بطريق غير محسوسة ، فيصبح كل أب هو المعلم والسيد الحر لاسرته ، ويصبح العقل وحده قانون الناس . وهذا هو سر من أعظم أسرارنا »

٥ ـ ونرى مما تقدم أن فيسهاوبت لا يستند في طريقته الى أية فكرة روحية ، وانه يرجعها الى مبادىء سياسية واجتماعية محضة ، غير انه كان يحرص في نفس الوقت على ألا يتعرض لمعتقدات النـاس وأوهامهم الدينية بالحملة الظاهرة على النصرانية ، وتعاليمها ، بل بالعكس نراه في كثير من أقواله يلتمس معونة المسيح بأساليب جميـلة خلابة قد تحملنا على الاعتقاد في صدقه واخلاصه . بيد أن النصرانية لم تكن سوى قناع يستتر به وميداناً يبث فيه دعوته الهادمة ، لانه رأى بثاقب فكره أن روح الثورة أشد من غيرها في تعاليم النصرانية ، ولذلك نراه يحاول أن يصور المسيح شيوعياً وعضو جمعية سرية فيقول مثلا : « اذا كان يسوع يحث على احتقار الغنى فذلك لانه يريد أن يعلمنا كيف نحسن استخدامه، ويهيء السبيل لشيوع الارزاق الذي ابتدعه» ثم يقول : « ان أحداً لم يحسن اخفاء مغزى تعاليمه السامي ، ولم يظفر أحد بتوجيه الناس الى طريق الحرية مثل سيدنا العظيم يسوع النصراني . وقد كان يخفي هذا المغزى السري . لان يسوع كانت له تعاليم سرية »

وهكذا يشرح فيسهاوبت تعاليم النصرانية بشروح سياسية محضة ، ويرجع في النهاية كل أثر وكل قوة الى « العقل » ، فهو الدين الذي يجب أن يعتنقه كل البشر ،

وهو الوسيلة الوحيدة لانقاذ الانسانية وحسم المعضلة الاجتماعية

ثم ان فيلو (البارون فون كينجه أحد زعماء الشعلة) في بعض رسائله يلقي ضياء على طرق الشعلة الدينية فهو يشرح في احد رسائله لـكاتو (سفاك) ضرورة ابتكار طريقة لارضاء المتعصبين وأحرار المفكرين معاً فيقول :

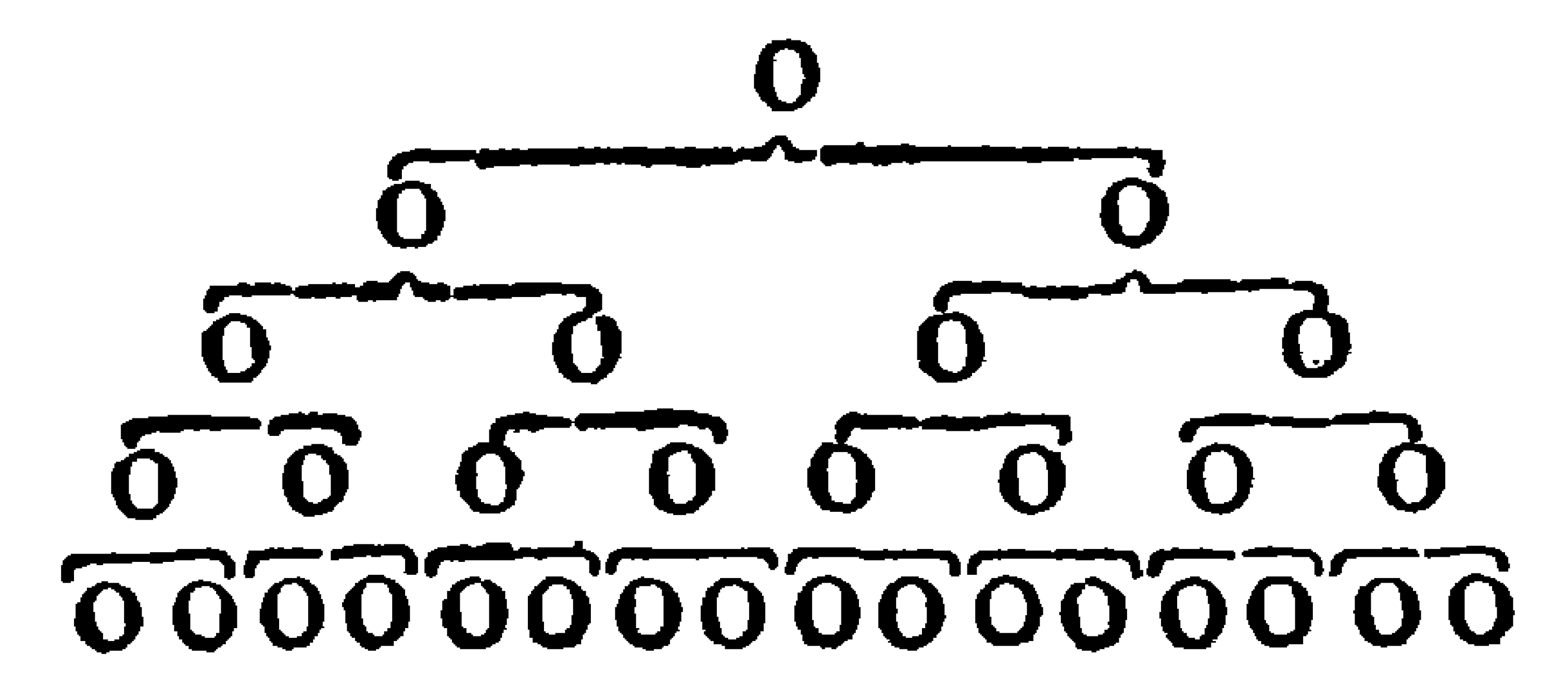
«يجب علينا اذا أردنا أن نعتمد على هذين الفريقين من البشر وان نؤلف بينهما أن نبتكر تفسيراً للتصرانية ، نجعله سراً للبناء الحر ثم نحوله الى وسيلة لتحقيق مقاصدنا »

ويشرح فيلو رأيه على النحو الآتي : « نقول اذاً : أراد يسوع أن يغرس ديناً جديداً ، ولـكن ذلك لـكي يعود الدين الطبيعي والعقل كل الى مكانته الاولى . وعلى ذلك فقد أراد أن يدمج كل البشر في جمعية عالمية كبرى وأن يجعلهم بنشر الخلق الحكيم ، والعرفان ، ومحاربة التحامل والبغض أقدر على حكم أنفسهم . وهكذا كانت تعاليمه السرية ترمي الى توجيه الناس الى الحرية العامة والمساواة بغير ما ثورة »

٦ ـ وقد نجحت فكرة فيلو هذه أيما نجاح حتى أن فيسهاوبت كان يعتمد في نشر طريقته بالاخص على رجال الدين والاساتذة . ويدس الاولين لمحاربة اليسوعيين ، والاخيرين لبث مبادىء الشعلة في نفوس الطلبة والشبيبة ، وقد كانت الشبيبة موضع عناية فيسهاوبت اذ كان يرى انها اكثر أهبة لتلقي مبادئه وأشد تأثراً بها ، وأوفر حرصاً على اذاعتها ونشرها . وكانت الشعلة تلجأ في حشد الاعضاء الى طرق الاسماعيلية من التأثير على عقل الطالب واستثارة فضوله ودهشته بالاشارات والتلميحات الخفية وذلك دون أن يكشف له شيئاً من حقيقة مبادىء الجمعية وغاياتها فهذه لا تكشف الا الى دعاة المراتب العليا . يقول فيسهاوبت « يجب أن نحتاط مع المبتدىء في مسألة كتب الدين والدولة . وقد رأيت ان أخص بها المراتب العليا » كان الداعية يقول للمرشح مثلا : «لا ريب انك بعد عامين من التأمل ، والتجارب ، والاختلاط ، ومطالعة الـكتب والاخبار ، قد اعتقدت ان غايات جمعيتنا الاخيرة ليست سوى اكتساب السلطان والثراء ، وهدم الحـكومة الدنيوية او الدينية ، ونيل سيادة العالم وما اليها . فاذا كنت قد صورت جمعيتنا لنفسك من هذه الوجهة ، أو التحقت بها على هذا الامل فربما تكون قد خدعت نفسك . . . » ، ثم يقول له الداعية ، انك حر في الانسحاب اذا أردت ، وذلك دون أن يكشف له شيئاً من غايات الجمعية . وبهذه الوسيلة استطاع الزعماء أن يبعدوا عن الشعلة الطامعين الذين قد ينافسونهم في نيل النفوذ والقوة ،

وأن ينشئوا صفوفهم من رجال يسيرونهم كيفما أرادوا من وراء ستار . وكان التمسك بأذيال الخفاء والكتمان أقوى سلاح للشعلة ، وكان يسيرها ويوجه خطواتها بضعة رجال على رأسهم فيسهاوبت . وقد كتب سبارتاكوس (فيسهاوبت) الى كاتو :

« تقضي الظروف أن أبقى مستتراً عن معظم الاعضاء ما دمت حياً ، وأراني مضطراً أن أنفذ كل شيء على يد خمسة أشخاص أو ستة » . وبلغ من تكتم الشعلة أن أحداً من الناس سوى نفر من دعاة المراتب العليا لم يعلم أن فيسهاوبت هو رئيس الجمعية قبل مصادرتها وضبط أوراقها في سنة ١٧٨٦



Ich habe zwey unmittelbar unter mir, welchen ich meinen ganzen Geist einhauche, und von diesen zweyen hat wieder jeder zwey andere, und so fort. Auf diese Art kann ich auf die einfachste Art tausend Menschen in Bewegung und Flammen setzen. Auf eben diese Art muß man die Ordres ertheilen, und im Politischen operieren.

صورة رمزية لبرنامج آدم فيسهاوبت

ويؤكد فيسهاوبت في كتاباته أنه كان السيد الاعلى للشعلة ، ويوجه في فرص عدة نظر المقربين من أعوانه الى ضرورة توحيد القيادة في الجمعية ، ويشرح الطريقة التي يستطيع بها رأس نابه ذكي أن يقود المئات والالوف بصورة رمزية نثبتها للقارئ وفي ذيلها فقرة من كلامه هذه ترجمتها :

« يليني اثنان مباشرة أنفث فيهما كل عقلي ، ويلي كلا منهما اثنان آخران ، وهلم جرا ، بهذه الوسيلة أستطيع أن أحرك وأثير الف رجل بأيسر أمر ، وبهذه الطريقة يجب أن يصدر الانسان أوامره وأن يعالج شؤون السياسة »

فكانت النتيجة المدهشة لتلك الطريقة هي نفس النتيجة التي قصد اليها عبد الله بن ميمون في وضع طريقته السرية وهي أن جمهوراً عظيما من رجال يعتنقون مذاهب ومبادىء مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم

٧ ـ رأينا وجه العلاقة بين البناء الحر وأصل الشعلة. وسواء أكانت الشعلة قد نشأت في مهد البناء الحر أو كانت من عمل فيسهاوبت ومحض ابتكاره ، فان تعاليم البناء الحر ونظمه قد لعبت دوراً هاماً في أعمال الشعلة . ذلك أن فيسهاوبت اختار أن يحتجب وراء البناء الحر ورأى المحافل خير قناع يستر به غاياته « لان العالم قد اعتاد ألا ينتظر منها عملا عظيما يستحق الاهتمام » واتخذ من أساطير البناء الحر وسيلة لتأييد شرحه لتعاليم النصرانية ، فزعم أن النظرية السرية التي تخفيها تعاليم المسيح قد تناقلها على كر العصور دعاة رأوا أن يخفوا نظريتهم تحت ستار البناء الحر ، وان حيرام هذا الذي تشير اليه الاساطير هو المسيح بذاته وعلى ذلك فالبناء الحر هو النصرانية المقنعة في رأي فيسهاوبت . ومن ثم اختار زعيم الشعلة لجمعيته مراتب البناء الحر ، ولا سيما مراتبه الدينية

ثم ان فيسهاوبت لم يقف عند الاقتباس من نظم البناء الحر وتقاليده ؛ ولكنه التحق به رسمياً في سنة ١٧٧٧ ، غير أنه لم يلتحق به مخلصاً لمبادئه وانما لكي يتدرج في مراتبه ويكشف أسراره لنفسه ، وقد كتب لكاتو بعد عام من دخوله : « لقد ظفرت بمعرفة لحة عميقة من أسرار البنائين الاحرار وقد وقفت على غاياتهم كلها ، وسوف أنقلها في الوقت المناسب الى احدى المراتب العليا » . ثم أوفد كاتو بعد ذلك الى ايطاليا ليقف على أسرار أخرى ، وأثبت كاتو في مذكراته ما يأتي : « تحادثت مع الاب ماروتي في شؤون البناء الحر ، فشرح لي السر كله واذا به مشتق من الدين القديم ومن تاريخ الكنيسة ، ووقفني على أسرار المراتب العليا حتى رتبة الفارس الايكوسي . وقد أخبرت سبارتاكوس بهذا »

وكتب فيسهاوبت بعد ذلك « سوف يكون لنا محفل بناء خاص بنا نعتبره حديقة للتغذية . ثم انا لن نفضي لاولئك البنائين في الحال بأن لدينا شيئاً غير الذي يعتنقه البناؤون . وسوف نستتر بهذا الرداء في كل فرصة ، ونبقي أولئك الذين لا يصلحون للعمل في محفل البناء حيث يتدرجون في مراتبه دون أن يعلموا شيئاً آخر عن طريقتنا » ثم يحاول فيسهاوبت بعد ذلك ان ينتزع محفل تيودور في ميونيخ من رياسة محفل برلين لكي يستأثر هو بادارته والسيطرة عليه ويبدي في كل ذلك كثيراً من

الدهاء والمقدرة على الدس . وبينما يحتقر في أعماق نفسه كل تعاليم البناء الحر والصليب الوردي وكل ضروب الروحية والتصوف اذا به يتخذها جميعاً شباكاً للصيد . وعلى ذلك فرياء الشعلة نحو البناء الحر أمر لا مرية فيه ، تؤيده وثائق الشعلة ذاتها

والخلاصة أن الشعلة البافارية كانت تمثل روحاً ثورياً هائلا يضطرم بغضاً لكل نظام اجتماعي وخلقي كائن ، وقد اجتهدت في أن تستخدم كل حركة أخرى يمكن أن تفيد في تحقيق غاياتها . ولم تكن مبادىء الشعلة مجموعة من ضروب الدهاء النظري فقط ، بل كانت تغذي أيضاً كل طريق عملية لأثارة الناس ودفعهم الى العمل . وهذا ما أدركه فيسهاوبت بذكاء وبراعة ، فقد استطاع أن يستخلص من نظم الجمعيات الأخرى قديمها وحديثها كل ما أراد من مناهج وطرق وأن ينسقها ويستخدمها بمهارة . وقد استعرض لهذا الغرض مبادىء المانوية والفلاسفة المحدثين ، والاسماعيلية ، والفرسان ، واليسوعيين ، ودرس مبادىء البناء الحر وفلسفة ماكيافالي ، وأسرار الصليب الوردي وغيرها ، وعرف فوق ذلك كيف ينتقي العناصر الصالحة لجمعيته من جميع الطبقات والاهواء والافكار ، فنجد بين أعضاء الشعلة من شاعر عبقري مثل جيته وغيره من أصحاب المثل العليا ، الى أخطر دساس ومتآمر ، وخيالي ، وطامع ، وناقم ، وساخط ، يجتمعون كلهم في حظيرة واحدة ، ويعملون لغاية واحدة وكل يجهل خلافه مع الآخر

وقد رأينا أن فيسهاوبت لم يكن مبتدعاً لتلك الطريقة المدهشة ، وانها انما نشأت في المشرق وابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي عبد الله بن ميمون ، غير أن فيسهاوبت كان أول من طبقها في جمعية سرية غربية وطبقها بنجاح مدهش ، ومن ثم غدت طريقة لكل جمعية سرية أو ثورية غربية أخرى ، وهو ما يضع فيسهاوبت في صف زعماء الثورة وأقطاب الهدم والنظم والجمعيات السرية

٨ ـ لم تمض بضعة أعوام حتى اشتد ساعد الشعلة البافارية وأنشأت لها فروعاً في معظم المدن الاوربية ، واجتذبت اليها جمهوراً كبيراً من المتنورين ، وحظيت بمؤازرة نفر من أبطال الادب في ذلك العصر مثل جيته وهردر وكذلك بعض الامراء والحكام مثل دوق فيمار ودوق جوتا . وكانت مراتبها تجتمع في ثلاثة أقسام هامة . الاول قسم المبتدئين ، والعقلاء ، وصغار الدعاة . والثاني قسم البنائين الاحرار والفرسان العاديين والفرسان الايكوسيين . والثالث قسم الخفاء وفيه مراتب الكاهن والوصي والقطب والملك

غير أن فوز الشعلة لم يطل أمده حيث استحالت صرامة اجراءات القبول وغرابتها الى ضروب للتجسس ، فعصفت بالجمعية ، وصرفت عنها كثيراً من الانصار . ومن ثم كانت فكرة فيسهاوبت في تقوية علائق الشعلة بالبناء الحر ، والعمل باسمه ، والاستتار بنظمه وشعائره

وقد كانت هذه وسيلة صالحة لتجديد نشاط الشعلة وقوتها ، ولكن حادثاً مدهشاً فضح أسرار الجمعية فجأة ، وحطم صرحها ونشاطها . وذلك ان راهباً من أعضائها يدعى لانتسه أوفد في يوليه سنة ١٧٨٥ الى سيليزيا كرسول للشعلة فأصابته أثناء المسير صاعقة قتلته ، ووجدت معه وثيقة بتعاليم الشعلة ، وقفت الحكومة البافارية منها على طرف من أسرار الجمعيـة ومناهجها ، فنشطت الى تحقيق الامر واقتحمت منزلي سفاك وباسوس وضبطت لديهما كثيراً من الوثائق والاوراق التي نشرت فيما بعد كما ذكرنا . هـذا الى أن المختار أصدر قانوناً بحل جميع الجمعيات السرية التي توجد في بافاريا . وكان من أثر ذلك أن قبض على جماعة من أقرب أنصار فيسهاوبت وحوكموا . أما فيسهاوبت ففر الى جوتا واحتمى بأميرها الذي اعتنق مبادئه

غير أن الشعلة البافارية لم تخمد ، ولم تنحل ، بل نهضت في الحال من عثرتها تحت أستار وأسماء جديدة ، وظهر فيسهاوبت ثانية في ميـدان العمل واستمر في نشاطه أعواماً مديدة كما سنرى

تأثير الدعوات السرية

في الثورة الفرنسية

(١) تمهيد (٢) محافل البناء الحر والشعلة البافارية . الجمعيات السرية وحادثة عقد الملكة . عودة الشعلة البافارية الى العمل . المحافل السرية قبيل الثورة . حقيقة التعاليم التي قصدت الى اضرام الثورة (٣) مخاوف بعض مفكري هذا العصر . نبوءة الكردينال كابراوا . نبوءة المركيز دي لوشيه (٤) صلة ميرابو بالجمعيات السرية . برنامج الثورة كما وجد في وثيقة تنسب الى ميرابو . هل أريد بالثورة الفرنسية ان تكون فاتحة لثورة عالمية ؟ أقوال المؤرخ لومبار دي لانجر . ماذا كان وراء زعماء الثورة والمؤتمر الوطني . صبغة الثورة القومية

١ ـ رأينا مما تقدم أن الهدم الشامل غاية تجثم وراء جهود كل الجمعيات السرية سواء تلك التي قامت في المشرق لهدم الاسلام وتعاليمه بل هدم كل الاديان على الاطلاق وما حملت من نظم سياسية واجتماعية وأخلاقية ، أو تلك التي قامت في المغرب لهدم النصرانية وما حملت من تعاليم ونظم والمدنية وما أقامت من صروح للحياة العامة ، وما سنت من شرائع وتقاليد وعرف ، ثم رأينا أن هذه الجمعيات السرية والحركات الهدامة الخفية قد بلغت في الغرب ذروة الاتساع والبأس في أواخر القرن الثامن عشر حيث ازدهرت محافل البناء الحر في فرنسا والمانيا ، وسما شأنها واستفحل نفوذها بين جميع الطبقات ، وحيث قامت الشعلة البافارية وبثت تعاليمها في المانيا وفرنسا ، وبعثت لمحات من نظمها ونشاطها الى البناء الحر والى طائفة كبيرة من الجمعيات السرية الاخرى ، وحيث اندس دعاة الكابالا والسحرة الى جميع أنحاء أوربا ، وظهر أقطاب السحرة الكاباليين مثل البارون فون أوقنباخ ، والكونت سان جرمان ، وكاجليوسترو وفوك وخلبوا مجتمعات هذا العصر بدعاويهم وشعوذتهم . ونلاحظ الآن أن تلك الفورة العامة التي شملت كل الجمعيات والطوائف السرية في هذا العصر قد حدثت قبيل الثورة الفرنسية بأعوام قليلة ، وان المجتمع الفرنسي الذي تأثر بروح هذه الفورة وأعراضها وتعاليمها أكثر من أي مجتمع آخر هو المجتمع الذي قام بالثورة ونفذ برنامجها الممعن في الهدم والمحو على مثل لم يشهده التاريخ . لذلك حق علينا أن نعنى بتحديد الدور الذي قامت به الجمعيات السرية في اضرام نار

الثورة الفرنسية والآثار التي بعثتها جهودها الى الثورة في أطوارها ووجهاتها المختلفة

ن مؤرخ الثورة الفرنسية قلما يعني بتحديد هذا الدور او الاشارة اليه ، ولكن مؤرخ الجمعيات السرية لا يسعه أن يغفل الكلام عن عامل من أهم العوامل التي أسبغت على الثورة صبغتها العالمية ، وجعلت منها قدوة عامة لجميع الحركات الهدامة التي قامت من بعدها ونسجت على منوالها

٢ ــ أشرنا فيما تقدم الى علاقة الشعلة الباڤارية بالبناء الحر ، وبينا كيف أن فيسهاوبت رأى أن يستتر بالبناء الحر وأن يتخذه آلة ووسيلة . وقد رأى البناء الحر من جانبه في فيسهاوبت وجمعيته عضداً قوياً ، ومنذ سنة ١٨٨٢ بدىء بعقد مؤتمرات مختلطة يشهدها أقطاب البناء الحر وأقطاب الشعلة الباڤارية . وفي فبراير سنة ١٨٨٥ عقد مؤتمر في باريس شهده بوده والبارون فون بوشه وهما من زعماء الشعلة، والساحر كاجليوسترو ، والمنوم مسمر ، وسفاليت دي لانج وغيره من زعماء البناء الحر وذلك للبحث في أغراض الشعلة والبناء الحر ووضع قاعدة مشتركة للعمل ، غير أنه لم يوفق الى نتائج حاسمة . وفي العام التالي عقد مؤتمر سري في فرانكفورت ، تقرر فيه على ما يقال لاول مرة قتل لويس السادس عشر ملك فرنسا ، وجستاف الثالث ملك السويد

بيد أنا نستطيع أن نتبين أثراً واضحاً لجهود الجمعيات السرية في اضرام نار الثورة في سنة ١٧٨٦ ، في حادثة عقد الملكة الشهيرة التي يصفها ميرابو بأنها « فاتحة الثورة » ويقول عنها نابوليون انها أقوى الاسباب التي أدت الى انفجار سنة ١٨٧٩. تلك الحادثة التي لا تكفي صحف التاريخ الرسمي لتبديد ما أحاط بها من الخفاء والغموض يمكن فهمها في صحف الجمعيات السرية ، فنحن نعلم أن كاجليوسترو كان بطلا من أبطال هذه الحادثة ، وان كان التحقيق الرسمي يريد أن يجعل دوره فيها عرضياً ثانوياً ، وكاجليوسترو كما رأينا داعية من دعاة الكابالا ، ومبعوث جمعية « الرقابة الصارمة » التي لم تكن سوى شعبة من شعب البناء الحر ، وقد اتصل بالكردينال دي روهان بطل المأساة الاصيل ، وقدم معه الى المحاكمة فبرىء ثم انتقل الى انجلترا في نفس هذا العام وهنالك اندس الى الجمعيات السرية في لوندره ، وظهر فيها باسم الكونت سوتكفسكي ، وكان الدكتور فوك يقيم هنالك في نفس الوقت . وقد أشرنا الى ما قد يكون ثمة بين كاجليوسترو والدكتور فوك ، وبين الدكتور فوك والدعوة الكابالية من علائق سرية . ومن الواضح ان الآثار التي ترتبت على فضيحة

عقد الملكة من التشهير برجال البلاط والكنيسة ، والحط من هيبتهما ، والقاء سحب من الشبه على وجهات السياسة الفرنسية وغيرها كانت مما يمهد الى الغايات التي يعمل لتحقيقها فردريك الكبير من وراء المحافل والجمعيات السرية الاخرى

ثم ان الشعلة البافارية التي طاردها مختار بافاريا في ذلك الحين وشرّد زعماءها لم تنحل الا في الظاهر كما قدمنا ، فقد عاد فيسهاوبت في الحال الى العمل وراء المحافل والجمعيات الاخرى ، لان الشعلة كانت في الواقع مبادىء أكثر منها جمعية سرية ، وقد رأيت ان فيسهاوبت كان يؤثر أن يبث تعاليمه تحت ستار أسماء وصفات أخرى . وكان أول ستار اتخذه فيسهاوبت للعمل محفل « الاخوة المتحدين » في باريس ، وكانت تربطه بالشعلة روابط عدة . ففي فبراير سنة ١٧٨٧ أي بعد حل الشعلة بأشهر فقط وفد بوده وبوشه وهما من زعماء الشعلة الى باريس بدعوة من اللجنة السرية لمحفل « الاخوة المتحدين » وعقدا مع المحفل باسم الشعلة محالفة وثيقة ، واجتمعا هنالك بميرابو وهو داعية قديم من دعاة الشعلة وكذلك بتاليران ، وكان لهما أكبر فضل في عقد هذا التحالف بين جماعة فيسهاوبت والبناء الحر

وقد كان معظم الزعماء الذين أضرموا نار الثورة فيما بعد ينتمون الى المحافل المختلفة ، فمحفل « الاخوات التسعة » كان يتألف في الغالب من ثوار الطبقة الوسطى مثل بريسو ، ودانتون ، وكاميل ديمولان ، وشامفور ، وكان « محفل الصراحة » يتألف من الثوار الارستوقراطيين مثل لافاييت ، والدوق دورليان ، والمركيز دي سلري ، والدوق ديجويون ، والمركيز دي كوستين ، وآل لامبال . أما محفل « العقد الاجتماعي » فكان يتألف في الغالب من ملكيين مخلصين ليست لهم غايات ثورية . وكانت مهمة محفل « الاخوة المتحدين » أن يجمع بين الثوريين الهدامين من مختلف المحافل وبين معظم اللجان السرية للمشرق الاعظم ، وان يعمل على انتخاب نواب للاقاليم من أعضاء « الشعلة » ، فكان محفل شارع دي لاسورديير (الاخوة المتحدين) الذي يرأسه سافاليت دي لانج في الواقع مجمعاً لتلاميذ فيسهاوبت وسويدنبورج وسان مارتان ، وملتقى لمعظم أقطاب الثورة وقادة الجماهير

وكان تأثير الشعلة البافارية في تلك المحافل والجمعيات السرية عظيماً ، اذ سرعان ما تسربت اليها تعاليم فيسهاوبت حتى تحولت مبادئها الثورية الغامضة الى نزعة قوية مضطرمة وفي سنة ١٨٧٩ وفد بوده وبوشه الى باريس بحجة الاستعلام عن حقيقة التنويم الذي ذاع أمره عندئذ ، ولكن غايتهما الحقيقية كانت حشد الانصار

والدعاة لتعاليم الشعلة . ويصف الاب بارويل هـذا التأثير في قوله : « كان محفل الاخوة المتحدين يجمع كل شيء يمكن استخراجه من جميع نظم البناء الحر في العالم وبذلك مهدت السبيل بسرعة أمام تعاليم الشعلة ، وسرعان ما تشبع ذلك المحفل وكل المحافل الاخرى التي تنتمي اليه بهذه التعاليم ، وسرعان أيضاً ما غاضت نظمه ومبادئه القديمة ، وحلت التعاليم الفلسفية السياسية مكان التعاليم السحرية الـكابالية »[1]

فلم تـكن التعاليم الـكابالية أو المارتينية أو تعاليم البناء الحر هي التي أنشأت قوى الثورة مستقلة لان كثيراً من دعاة البناء الحر الذين لم يصطبغوا بتعاليم الشعلة لبثوا مخلصين للعرش وللـكنيسة ، ولما انفجر بركان الثورة وأحدقت المخاطر بالملـكية دعا اخوة محفل « العقد الاجتماعي » المحافل الاخرى الى الدفاع عن الملك والدستور ، واجتمع حول العرش نفر من زعماء البناء الحر الذين أقسموا العداء للبابوية والبوربون ، وتغلبت فيهم الروح الفرنسية على الروح الفلسفية العامة . وعلى ذلك فاذا قيل ان للبناء الحر دوراً في اضرام الثورة الفرنسية ، فذلك هو البنـاء الحر الذي حمله تيار الشعلة ، وهو أثر التعاليم التي بثها دعاة الشعلة في المحافل الفرنسية منذ سنة ١٨٨٧ وهو وحي فيسهاوبت « بطريق اليعقوبيين » أقطاب الثورة وقادتها

٣ ـ هذه العقلية الثورية الهدامة التي سرت الى مجتمعات هـذا العصر لم تكن خافية على بعض الرجال المطلعين ذوي النظر البعيد ، فقد آنسوا اضطرامها ، وجزعوا لمخاطرها ، وتوقعوا منها ويلاً مستطيراً للنظم القائمة . ومن هؤلاء الـكردينال كابرارا المبعوث الرسولي في فينا ، فقد كتب الى البابا تقريراً سرياً في سنة ١٨٨٧ يصف فيه جهود الشعلة والبناء الحر وما اليهما من الجمعيات السرية في المانيا ومما كتب : « ان الخطر داهم، لان كل هذه الاحلام الخرقاء التي تحملها تعاليم الشعلة، وتعاليم سويدنبورج وتعاليم البناء الحر ستسفر عن حقيقة رائعة . وللتصورات طور محدود ، وسوف يكون للثورة التي يتنبأون بها نصيبها من التحقق ايضاً » . ثم ان المركيز دي لوشيه وهو من النبلاء الاحرار الذين لعبوا دوراً في الحركة الثورية لاحظ أخطار المبادىء التي تذيعها الشعلة على النظم القائمة وروعة الجهود التي تنفقها في هدمها فحذر الناس من عواقبها في رسالة له عنوانها « رسالة عن طائفة دعاة الشعلة »[2] كتبها في سنة ١٨٨٩ قبل أن يستفحل أمر الثورة . ومما قاله : « أيها الناس المخدوعون ، اعلموا انه توجد

(1) Barruel, Memoires pour servir à l'Histoire du Jacobisme

(2) Essai sur la Secte des Illuminés

مؤامرة لتغليب الظلم على الحرية ، والعجز على الكفاية ، والرذيلة على الفضيلة ، والجهل على النور ، . . . هذه الجمعية ترمي الى حكم العالم ، وغايتها السيادة العامة . وقد تبدو هذه الفكرة خارقة ، بيد انها ليست خيالية . . . ولم يصب العالم من قبل مثل هذه المصيبة » ثم يصف دي لوشيه بعد ذلك طرفاً من حوادث تشبه تلك التي حدثت بعد ذلك بأعوام ثلاثة ، فيصف موقف ملك اضطر الى الاعتراف بسادة غلبوا على العرش واقرار « نظمهم الفظيعة » والى أن يغدو آلة لجماعة طاعة متعصبة ملكت ناصية ارادته ، ثم يقول : « تخيلوه محكوماً عليه بأن يخدم شهوات كل أولئك الذين يحيطون به ، . . . وأن يرفع رجالا أوغاداً الى منصة الحكم ، وأن يلوث أحكامه باختيارات تحط من قدر كرامته وحزمه . . . »

وللمركيز دي لوشيه أن يتصور أدوار الثورة طبقاً لتلك العقلية الرجعية المتحيزة وأن يصف تحطيم الملكية وطغيانها ، وفوز الشعب في استرداد حقوقه وسيادته بما شاء من النعوت ، وأن يصم زعماء الثورة ويحط من أقدارهم كما يهوى ، ولكن الحق أنا اذا جردنا عباراته مما احتوت من تحامل الفينا النبوءة مدهشة خارقة ، فقد سارت الحوادث طبقاً للمنهج الذي تخيله المركيز دي لوشيه ، ولم تأت سنة ١٧٩٢ حتى كان فوز الثورة كاملا شاملا

ثم يتنبأ دي لوشيه بوثبة الهدم التي قامت بها الثورة في قوله : « لا نريد أن نقول ان البلد الذي يحكمه دعاة الشعلة يموت ولكنه ينحط الى أسفل درك من الذل بحيث يصبح غير ذي شأن في السياسة ، ويقل سكانه ويقع اولئك الذين يحجمون منهم عن الهجرة الى البلاد الاخرى بين براثن الاحزان والفاقة فلا ينعمون بالاعتبار ولا سعادة الاجتماع ولا مواهب التجارة »

ثم يختتم رسالته بنداء مؤثر يوجهه الى دول أوربا مستنهضاً إياها لغوث أولئك الذين اعتبرهم للدعوات السرية الهدامة فرائس وضحايا ، ومما يقول : « يا سادة العالم تأملوا كتلة بشرية منكودة ، واصغوا الى صراخها ودموعها وآمالها ، ان أمّـا تسألكم أن تردوا اليها ولدها ، وزوجاً زوجها ، وتسألكم مدنكم أن تردوا اليها تلك الفنون الجميلة التي فرت منها ، وتسألكم البلاد عن سكانها ، والحقول عن زراعها ، والدين عن شعائر العبادة ، والطبيعة عن بشر هي خليقة بهم . . . »

ورسالة المركيز دي لوشيه هذه من أغرب وثائق التاريخ وهي كما ترى دليل ناهض على أن تعاليم فيسهاوبت ، ودعوات الشعلة والبناء الحر كانت تثير حقاً جزع المشفقين

على النظم القائمة ، وعلى أن هذه النظم كانت تضطرب أمام العدو الخفي الذي ينشط في الخفاء الى تقويضها وتحطيمها

٤ ـ ولنا في حياة ميرابو وتصرفه دليل آخر على نشاط الجمعيات السرية في اضرام نار الثورة ، فقد رأينا أن ميرابو داعية متحمس من دعاة الشعلة ، ورأيناه يعمل في معظم الجمعيات السرية التي كانت قائمة في ذلك الحين ، ولما تفاقم الخلاف بين نواب الطبقات وبين البلاط وكان ميرابو من أنشط العاملين على إذكاء فورة الشعب ، وبث روح الخروج والثورة في نواب الطبقات وزعماء الجماهير ، بل كان أول من رفع لواء العصيان وأشد من حرض على تأليف الجمعية الوطنية التي كان قيامها فاتحة النضال الحقيقي بين الشعب والملكية . ومن الصعب أن نستشف من الموقف الذي وقفه ميرابو عندئذ حقيقة الدور الذي أثاره وحي الشعلة وغيرها من الجمعيات السرية في ثنايا المعركة التي أخذ يضطرم لظاها بين دعاة الثورة والهدم وبين النظم القديمة ، ولكن أليس لانتماء ميرابو ، ودانتون ، وبريسو ، وكاميل دءولان ، ولافاييت الى محافل البناء الحر التي غلبت عليها نزعة الشعلة وتعاليم فيسهاوبت ، مغزى هام اذا ذكرنا أن هؤلاء كانوا من أعظم قادة الثورة الفرنسية ، بل اذا ذكرنا أن دانتون وبريسو كانا من أعظم دعاة الهدم والمحو ، وأن كاميل دءولان كان أول من دفع الشعب الى حمل السلاح والوثوب بالباستيل ، بل أن خطة الثورة كلها قد وجدت مدونة في وثيقة . وجدت بين أوراق ميرابو على ما جاء في نشرة ظهرت في سنة ١٧٩١ عنوانها « خفايا المؤامرة » Mystères de la Conspiration ، وناشر هذه الرسالة يقرر أن الوثيقة المذكورة وعنوانها ملخص أو مشروع ثورة المسيو دي ميرابو Croquis ou Projet de Révolution de M. de Mirabeau قد ضبطت في منزل مدام لجاي زوج ناشر كتب ميرابو وذلك في ٦ اكتوبر سنة ١٧٨٩ . وتفتتح هذه الوثيقة بحملة مرة على الملكية الفرنسية ، ثم يقول كاتبها : « ويجب من أجل أن نظفر بذلك المارد الجبار أن نقوم بما يأتي » :

«يجب أن نسحق كل النظم ، وأن نلغي كل القوانين ، وأن نمحو كل السلطات ، وأن نترك الناس في فوضى وقد لا تنفذ القوانين التي نسنها في الحال ، ولكنا متى رددنا السلطة الى الشعب فانه سوف يقاتل من أجل حريته التي يعتقد أنه يقاتل لصونها . ويجب أن نقضي عن كبرياء الافراد ، وأن نعلق آمالهم ، وأن نعدهم بالسعادة متى بدأ عملنا : ويجب أن نجانب أهواءهم وما عليه اراداتهم لان الشعب مشرع شديد الخطر

فهو لا يسن من القوانين الا ما يتفق مع شهواته ، هذا فضلاً عن أن قصوره في المعرفة يفضي الى الخطأ والتطرف . ولكن لما كان الشعب آلة يحركها المشرعون طبق ارادتهم فمن الضروري أن نستخدمه لتأييدنا ، وأن نحمله على بغض كل ما نرمي الى هدمه ، وأن نغذيه بالخيالات والاوهام . كذلك يجب أن نشتري كل الاقلام المرتزقة التي تبث مبادئنا ، والتي تعرف الشعب باعدائنا الذين نهاجمهم . فرجال الدين مثلا وهم أقوى الطوائف تأثيراً في الرأي العام لا يمكن هدمهم الا بالسخرية من الدين والتشهير بأقطابه ، وتصويرهم أوغاداً منافقين ، ذلك لان محمداً مهد لانشاء دينه بالطعن في الوثنية



ميرابو

التي كان يعتنقها العرب ، ومن الواجب أن تقوم النشرات القاذفة في كل وقت بحملات جديدة على رجال الدين ، فنبالغ في تصوير ثرائهم ونعيمهم ، وننسب اليهم كل الرذائل والمفاسد ، فالقذف والقتل والكفر كلها مباحة في أوقات الثورة

« ثم يجب أن نشين من قدر النبلاء وأن نرجعهم الى أصل ساقط ، وأن نبث فكرة مساواة لا يمكن تحقيقها ولكنها تكون ملقاً للشعب . كذلك يجب أن نطارد المتعنتين وأن نحرقهم وان نحطم ثرواتهم حتى نردع الباقين ، فاذا لم نفز بسحق هذه

النزعة فانا نضعفها ، والشعب ينتقم لكبريائه وغيرته بارتكاب صنوف الافراط والتطرف التي تجره الى الخضوع والاستسلام »

ثم تأتي الوثيقة بعد ذلك على دور الجند فتصف كيف يجب اغراؤهم وحملهم على العصيان . ثم تصف القضاة بأنهم ظلمة فجار . وتقرر عن مناهج الثورة ما يأتي :

« ماذا تهم الفرائس وعددها ؟ وماذا يهم التخريب والاحراق والنهب والسفك وكل ما تقتضيه الثورة ؟ يجب ألا نقدس شيئاً ، وان نأتم بقول مكيافيللي « بماذا تهم الوسائل ما دامت تفضي الى الغاية ؟ »

ليس ثمة ما يؤيد هـذه الوثيقة من الوجهة التـاريخية ولا ما يؤكد نسبتها الى ميرابو ، ولـكن أليس فيما ورد فيها كثيراً مما نستشف من حوادث الثورة من مناهج وخطط ؟

على أن هنالك ما يدل على أن هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق التي وجدت بين اوراق ميرابو والتي تلقي ضياء كبيراً على اتصاله بالشعلة البافارية ، والبناء الحر ، تؤيد أنه كان ثمة مؤامرة كبيرة دبرت في أقبية الجمعيات السرية لاضرام نار ثورة عامة تكون فرنسا مهدها ومسرحها الاول فقد ذكر ديشان مثلا أن ادريان ديبور تلا في ٢١ مايو سنة ١٧٩٠ على لجنة الدعوة مشروعاً هائلاً للهدم جاء فيه : « لقد قرر المسيو دي ميرابو ان الثورة السعيدة التي وقعت في فرنسا يجب أن تكون بالنسبة لجميع شعوب اوربا يقظة الحرية وللملوك سبات الموت ، وان ديبور لم يرَ رأي ميرابو في الاقتصار مؤقتاً على الاهتمام بما يدور في فرنسا من الحوادث ، بل قرر انه يعتقد ان ظفر الثورة الفرنسية يجب ان يفضي حتما « الى هدم كل العروش . . . وعلى ذلك فيجب ان نسارع الى ان نضرم لدى جيراننا ثورة كالتي تسير الآن في فرنسا » ويصف ديشان ادريان ديبور هـذا بأنه من اقطاب اعضاء الجمعيات السرية وممن يقبضون على جميع خيوط مؤامرات البناء الحر [1]

أليست هذه فكرة الثورة العالمية بعينها ؟

واليك ما يقوله لومبار دي لانجر مؤرخ اليعقوبيين عن علاقة الثورة وزعمائها بالجمعيات السرية : « كان في فرنسا في سنة ١٧٩٠ نيف والفا محفل تنتمي الى المشرق الاعظم وتضم من الاعضاء اكثر من مائة الف . وكانت الحوادث الاولى من سـنة

---

(١) ديشان « الجمعيات السرية والمجتمع » Les Sociétés Secrètes et la Société ويرجع هـذا الـكاتب في روايته هـذه الى وثائق وجـدت بين اوراق الـكردينال رئيس

١٧٨٩ترجع الى تدبير البناء الحر وحده . وكان جميع ثوار الجمعية الدستورية من أعضاء المرتبة الثالثة التي نضع بين اعضائها : الدوق دورليان ، فالانس ، سيلري ، لاكلو ، بيسيون ، مينو ، بيرون ، فوشيه ، كوندرسيه ، لافاييت ، ميرابو ، رابو ، دبوا كرانسيه، تيبو ،لاروشفوكول وغيرهم » [١] ومن هؤلاء الغير بريسو وزملاؤه الذين كانوا نواة الجيرونديين ، وكذلك اقطاب الارهاب أعني مارات وروبسبير ودانتون وديمولان

والعناصر المتطرفة الممعنة في الهدم او بالحري اقطاب الارهاب هم الذين غلبوا العناصر المعتدلة الخيالية من البناء الحر على أمرها وأخضعوها لصولة النزعة الوثابة الكاسحة . ويروي دي لانجر أيضاً ان اولئك الزعماء الثوريين عملاً بتقاليد الشعلة كانوا ينتحلون لانفسهم أسماء قديمة فكان شوميت يعرف بانا كساجوراس ، وكلوتس بانا كراسيس ، ودانتون بهوراس ، ولاكروا بيوبليكولا ونحوها كما كان فيسهاوبت ينتحل اسم سبارتاكوس، وسفاك اسم كاتو ، والبارون فون كنيجه اسم فيلو وهلم جرا فأقطاب الارهاب وقادة الهدم في الثورة الفرنسية هم كما ترى أبناء الشعلة قولاً وفعلا

بيد أن المدهش ما يقرره دي لانجر ايضاً من ان اولئك القادة الهدامين لم ينفذوا على ما يظهر الى اعماق اسرار الشعلة والى غاياتها القصوى والاخيرة ، وانهم مع تحقيقهم لكثير مما احتواه برنامجها العملي لم يكونوا سوى منفذيه الخارجين ، وان وراء المؤتمر الوطني ، والمحكمة الثورية ، ولجنة السلام العام وغيرها من آلات الثورة والارهاب « كانت تجثم جمعية تمعن في الاختفاء والتكتم Convention Sécrétissime هي التي كانت تدير الامور منذ بداية الثورة ، وكانت هذه قوة سرية هائلة قوامها اعظم دعاة الشعلة ، ولم يكن المؤتمر الثوري سوى عبد لها وآلة في يدها . وكانت فوق روبسبير وفوق كل لجان الحكومة . . وهذه القوة الخفية هي التي استولت على أموال الامة وقسمتها بين الاخوة والاصدقاء الذين عضدوا العلم العظيم » [١]

واذا كانت أقوال مؤرخ اليعقوبيين هذه تنم عن مبالغة ، فان فيها ايضاً ما يلقي ضياءً واضحاً على الدور الذي قامت به الجمعيات السرية ولا سيما الشعلة البافارية والبناء الحر في اضرام نار الثورة الفرنسية . أما نحن فلا نميل الى المبالغة في تقدير هذا الدور الى الحد الذي يذهب اليه لومبار دي لانجر من تجريد الثورة الفرنسية من كل صفة قومية ، واعتبارها ثمرة خالصة لجهود الشعلة البافارية والبناء الحر ، واعتبار

---

(١) تاريخ اليعقوبيين Hist. des Jacobins

قادتها وزعمائها وهيئاتها الثورية آلات محضة في يد هذه القوة الخفية التي يشير اليها . اما انه كان لتعاليم فيسهاوبت وجهوده الهدامة ومبادىء البناء الحر ومساعيه الثورية أثر كبير في تحريك الثورة الفرنسية وفي اذكاء حمية زعمائها وقادتها وتوجيه جهودهم ونزعاتهم الهدامة فما لا ريب فيه ، ولكن هذا الأثر الخفي لم يكن أصلاً في بعث فورة كانت تختمر في المجتمع الفرنسي قبل انفجارها بأعوام مديدة ، بل كان عرضاً تبعياً أعني ان الشعلة والبناء الحر وغيرهما من الجمعيات السرية رأت في المجتمع الفرنسي مهاداً خصيبة لبث دعوات الثورة والهدم ، واستطاعت منـذ اللحظة الاولى ان تستثمر ما كانت تجيش به نفوس الشعب الفرنسي من سخط وبغض ، وما كان يعانيه من بأساء وعسف ، وان توجه جهود الثورة بعد انفجارها على يد قادتها وزعمائها ومعظمهم كما رأيت من اعضائها ودعاتها

في ضوء هذه الاعتبارات يجب ان ندرس تاريخ الثورة الفرنسية . وقد انتهزنا هذه الفرصة لنعنى بوجه من وجوه الثورة الفرنسـية لم يعن به كاتب عربي تعرض لهذا الموضوع . ومما يؤسف له ان كل ما اخرج بالعربية حتى الآن عن الثورة الفرنسية ما يزال يعالج أسبابها وحوادثها بأساليب عتيقة بتراء لا تعطي للقارىء او المتعلم أية فكرة حقيقية عن اعظم حركة هدامة عرفها التاريخ

الجمعيات السرية في عصر التحرير

تمهيد

كان لمبادىء الثورة الفرنسية وتعاليمها صدى قوياً في معظم المجتمعات الاوربية الاخرى ، وقد غشيت الحروب النابوليونية هذا الأثر مدى حين ، ولكن تعاليم الثورة لم تذهب بانقضائها . بل كانت الحروب النابوليونية ذاتها عاملاً من عوامل بث هذه المبادىء على يد الجيش الذي اخرجته الثورة وقاده نابوليون الى فتح اوربا .
وكان سقوط هذا الطاغية وانتهاء المأساة الهائلة التي حولت أوربا الى ميدان حرب عامة ، وخضبت بسائطها بالدماء مدى عشرين سنة ، مؤذناً بيقظة المبادىء والنزعات الحرة الكامنة ، التي لبثت تضطرم خفية في صدور الشعوب ، فتعالت صيحات الجماعات من كل صوب في طلب الاصلاحات الدستورية والحقوق السياسية ، وقامت هنا وهنالك اضطرابات وثورات محلية . وارتاع الطغاة لهذه الاعراض فائتمروا بالشعوب واعتزموا سحق كل نزعة او وثبة حرة ، واخفات كل صوت يرتفع لتأييد الحقوق العامة ، وتحقيقاً لهذه الغاية الشائنة عقدت المعاهدة المقدسة في اواخر سنة ١٨١٥ بين اقطاب الطغيان في اوربا وهم اسكندر الاول قيصر روسيا ، وفردريك ولهلم الثاني ملك بروسيا ، وفرنسيس الاول امبراطور النمسا

غير ان عهد استرقاق الشعوب كان قد اخذ في الانحلال ، وحبل الطغيان في التصرم ، فلبثت اوربا مدى نصف قرن مسرحاً لوثبات وثورات متعاقبة في سبيل التحرر والوحدة القومية واسترداد الحقوق السياسية والاجتماعية . وكان بدء هذه الحركة قبل سقوط نابوليون نفسه حيث اتخذت في المانيا في المبدأ صورة حركة قوية عامة ترمي الى تحطيم النير الاجنبي قبل كل شيء ، وقد فازت هنالك ، وساعدت على تحطيم الجيوش الامبراطورية ، وانقاذ المانيا من النير الاجنبي . ثم اتخذت من بعد ذلك في ايطاليا صورة ثورة شعبية عامة تجتمع فيها كل الاماني القومية في استخلاص حريات ايطاليا من قبضة الاجنبي الغاصب ، واتخذت في فرنسا صورة نضال الشعب في سبيل احياء المبادىء الثورية القديمة ومحاربة الملكية وتحطيمها واستبدال طغيانها بالنظم الجمهورية ، واتخذت في روسيا صورة نزعة عامة في سبيل الاصلاح والتجديد واسترداد الحقوق السياسية والاجتماعية ، واتخذت صوراً شتى في معظم البلاد

الاوربية الاخرى بيد أن غايتها كانت واحدة في كل الاحوال ، وهي تأييد الحريات العامة وسيادة الشعب

وقد كان للجمعيات السرية في اضرام معظم هذه الحركات أثر بعيد وهو ما يعنينا هنا من أمر هذه الحركات . ويكفي لكي نقدر بعد هذا الاثر أن نتأمل ما قاله الوزير الانجليزي الشهير دزرائيلي عن هـذه الجمعيات السرية في احدى خطبه في مجلس النواب ، اذ يقول ما يأتي : « توجد في ايطاليا قوة قلما نذكرها في هذا المجلس ... أعني الجمعيات السرية . . . من العبث ان تنكر ومن المستحيل ان نخفي ان جزءاً كبيراً من اوربا ـ كل ايطاليا وفرنسا وجزءاً كبيراً من المانيا اذا لم نرد ان نقول شيئاً عن البلاد الاخرى ـ قد غطي بشباك من هذه الجمعيات السرية ، كما يغطى سطح الارض الآن بالسكك الحديدية . فما هي اغراض هـذه الجمعيات ؟ انها لا تحاول اخفاءها ، فهي لا تريد الحكومة الدستورية ، وهي لا تريد النظم المنقحة . . . ولكنها تريد أن تغير ملكية الارض ، وأن ترفع عنها يد ملاكها الحاليين ، وأن تسحق المعاهد الدينية . وقد يذهب بعضها الى ابعد من هذا الحد . . . »[1]

وليس المقام بمتسع هنا لكي نسرد بالتفصيل سير كل الجمعيات السرية التي قامت في ذلك العصر بكثرة في جميع الدول الاوربية ، بيد انا نأتي على سيرة أهمها وابعدها أثراً في تاريخ اوربا في ذلك الحين ، وفي وسع القارىء أن يلاحظ من تلاوة تاريخها الوجهة الجديدة التي اتجهت اليها جهود الجمعيات السرية في النصف الاول من القرن التاسع عشر

(١) دزرائيلي في خطابه في مجلس النواب في ١٤ يوليه سنة ١٨٥٦

جمعية الـكربوناري

I Carbonari

(١) أصل الـكربوناري وغاياتها . موررات والـكربوناري . الـكربوناري والبناء الحر . رموزها وقوانينها ومراتبها (٢) وصف رسوم الالتحاق . شعار الـكربوناري . خطاب « الـكوكب » . صيغة القسم الاعظم (٣) جهود الـكربوناري الثورية . الـكربوناري الفرنسية . نظمها ومراتبها . انتشار دعوتها . جهودها الثورية (٤) عود الـكربوناري الايطالية الى العمل . مطاردة البابوية للـكربوناري . جمعية الايماني المقدس . الثورة في الولايات البابوية . الـكربوناري والوحدة الايطالية

١ ـ من أهم الجمعيات السرية التي ازدهرت وبلغت ذروة نفوذها وبأسها في النصف الاول من القرن التاسع عشر جمعية الـكربوناري أو « حارقو الفحم » . وأصل هذه الجمعية محوط بالغموض والجدل الـكثير ، فبعض الباحثين يرجع أصلها الى عصر فرنسوا الاول ، ويرجعه البعض الآخر الى عصر أقدم فيقول بنواست مالون في كتابه تاريخ الاشتراكية : ان أسقفاً من ساربروك يسمى تيوبولد أنشأ في القرن الحادي عشر جمعية سرية من الفحامين والحطابين لتسعى الى « ان تدار الشؤون العامة طبقاً لرغبـة الجميع ورأيهم » ، فتصل بذلك الى إقامة ما يسميه تيوبولد بالدولة الديموقراطية العادلة . وكان « يسوع المسيح » هو الرئيس الفخري المختار للجمعية التي قنسم اعضاؤها الى جماعات تعرف « بالبيوع » ، وكانت كلمة التعارف هي الامل والايمان ، كذلك كان التعارف يجري طبقاً لعبارات سرية ورموز خفية . ويقول آخرون ان ايطاليا هي موطن الـكربوناري ، وان أصل الـكلمة يرجع الى ان « الجلفيين » كانوا يفرون من مطاردة أعدائهم « الجيلان » ويجتمعون في بطن الغابات في أكواخ الفحامين والحطابين . بيد انه مهما كان الجدل الذي يدور حول اصل الـكربوناري ، فانها لم تلعب دورها الهام الذي يسجل لهـا مكانة عظيمة في صحف الجمعيات السرية الا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت غايتها من هذا الدور سياسية محضة ، حيث عول انصارها على محاربة الاستبداد بجميع صوره ، والوصول الى أن يهبوا الى امتهم نظماً ديموقراطية حرة

وكان مورات ملك نابولي يؤيد دعوة الكربوناري في المبدأ باعتبارها مثقفة مهذبة غير انه ارتاع حينما شهد ذيوع المبادىء الجديدة بين جميع طبقات الشعب ، فمال على الكربوناري وجردهم من السلاح ، وأقصاهم عن أرضه ، فساروا وراء زعيمهم كابوبيانكو الى كلابريا . وكان أعضاء الجمعية في ذلك الحين لا يتجاوزون بضعة آلاف ، غير أن دعوتها ما لبثت في أعوام قليلة ان اجتاحت كل ايطاليا ، وذاعت في فرنسا واسبانيا ، واقتحمت نهر الرين ، وأخذت تبعث الجزع والرعب الى كل العروش الاوربية

وقد خلط بعض الباحثين بين الكربوناري والبناء الحر ، ولكن الواقع أن الكربوناري اشتقت من البناء الحر وكان لها مثل البناء الحر ورسومها الخاصة ولغتها الرمزية التي استعيرت من تعبيرات تجارة الفحم . فسميت قاعة الاجتماع « بالكوخ » baracca ، والمكان الذي يعقد الاجتماع فيه بالغابة والاجتماع ذاته بالبيع Vendita ، واطلقت كلمة الجمهورية على مجموعة القاعات ، وأشير بعبارة « تطهير الغابة من الذئاب » الى انقاذ الوطن من جميع الطغاة والظلمة ومن ثم كان نداء الاجتماع عند الكربوناري « الانتقام للحمل الذي اضطهده الذئب ! » . وكانت قوانين الالتحاق شديدة صارمة ، وعقوبات الخارجين والخونة هائلة رائعة ، بل كان العقاب يوقع للرعونة والخطأ . وكان العضو الملتحق يقسم بأن يكتم سر وجود الجمعية ، وأسرار رموزها ولوائحها وعبارات تعارفها ، وأن يطيع كل الاوامر الصادرة من « البيع الاسمي » طاعة عمياء لا حد لها لان الامور المنكرة تغدو مشروعة سائغة متى كانت وسيلة لتحقيق السعادة والغايات العامة ، وأن يهب كل ثروته وحياته في سبيل الحرية والوطن . ويجب فضلا عن ذلك على كل عضو أن يجهز نفسه من ماله الخاص ببندقية وخمسين رصاصة ليكون بذلك على أهبة لان يقاوم الجور ويشد أزر اخوته الذين يسمون « بأبناء الاعمام الفضلاء » . وكان عقاب الخروج الموت . أما الدرجات التي يجب ان يحوزها العضو الملتحق فهي على التوالي : المتمرن ، فالاستاذ ، فالمختار الاعظم

٢ ــ واليك تفاصيل رسوم الالتحاق بالدرجة الثالثة طبقاً لما رواه سان امده في كتابه عن الكربوناري : يجتمع « البيع » بعيداً عن الادناس في غار مظلم ، لا يعرفه سوى الكربوناري الذين وصلوا الى درجة المختار الاعظم وهذا الغار مثلث الجوانب ويجلس المختار الاعظم الذي يرأس الاجتماع على عرش يوضع في شرق الغار

في مكان يسمى بالزاوية العليا ، وأمامه في الغرب ، وفي منتصف قاعدة المثلث يوجد باب الغار ، يحرسه حارسان يعرفان « باللهبين » يحمل كل منهما سيفاً صنع على شكل اللهب . وينتظم المجتمعون الى صفين عن يمين الرئيس وعن يساره ، ويتجهون جميعاً بأبصارهم نحوه ليتبعوا كل اشاراته. ويسمى الاثنان اللذان يجلسان في نهايتي الصفين ، الطليعة الاول ، والطليعة الثاني ، ويسمى خطيب الاجتماع « بالكوكب » ، وينير القاعة ثلاثة مصابيح صنعت على مثل الشمس والقمر والنجم ويوضع كل منها في احدى الزوايا ، ويغطى عرش الرئيس ومقاعد الاعضاء بقماش احمر. ويرتدي الجميع ثياب الجمعية وهي عبارة عن قميص ازرق فوقه رداء طويل اسود قد عقد من الوسط بحزام من الصوف الاحمر علق فيه فأس صغير وخنجر ، ونعل مكشوف أزرق ، ومنديل كبير احمر يلف حول الجبين على مثل العمامة . ثم يبدأ الرئيس بقوله :

يا ابن العم الفاضل ، والطليعة الاول كم الساعة الآن

الطليعة الاول ـ أيها المختار الاعظم المبجل ان الناقوس يدق في كل ناحية ، فينفذ صداه حتى اعماق غارنا ، وأرى ان هذه هي اشارة اليقظة العامة للرجال الاحرار

المختار الاعظم ـ يا ابن العم الفاضل والطليعة الثاني متى يجب ان نفتتح أعمالنا السرية

الطليعة الثاني ـ في منتصف الليل أيها المختار الاعظم المبجل ، وذلك حينما تحتشد الجماهير العامة وراء اخواننا المدربين من ابناء الاعمام ، وتنتظم ، وتتحفز لتحطيم الاستبداد ، وتتأهب لان تضرب الضربات الكبرى

المختار الاعظم ـ ابني عمي الفاضلين ، اللهبين ، وحارسي ذمار مأوانا هل أنتما على يقين من أنه لم يندس بيننا أي دنس ، وان جميع الكربوناري الذين يجتمعون في هذه « الفندتيا » (البيع) هم جميعاً أساتذة عظام ومختارون عظام ؟

أحد اللهبين ـ بلى أيها المختار الاعظم الاجل ، فليس بيننا دنس ، ولا أخ من مرتبة صغرى

المختار الاعظم ـ هل اتخذ جميع المدربين لدرجات الكربوناري المختلفة الذين عينوا لقيادة الحركة العامة التي ستبدأ ، مراكزهم ، وجهزوا انفسهم بالسلاح جيداً ، يا ابن العم الطليعة الاول والطليعة الثاني

الطليعتان معاً ـ بلى أيها المختار الاعظم الاجل ، لقد ذهبوا جميعاً بعد ان اقسموا القسم المقدس أن يموتوا او يظفروا

المختار الاعظم ـ ما دامت الامور قد تمت على هذا النحو الحسن ابناء الاعمام

الفضلاء ، فاني ادعوكم الى مساعدتي في افتتاح اعمالنا الليلية بالقاء الشعار السباعي الذي أبدأه الآن ، هيا ابناء الاعمام الفضلاء :

« الى بادىء الكون ، الى المسيح رسوله على الارض ليعيد صروح الفلسفة والحرية والمساواة ، الى رسله ومبشريه ، الى القديس تبالدو مؤسس الكربوناري ، الى فرانسوا الاول حامينا ومبيد أعدائنا الاول ، الى السقوط الخالد لكل أنواع الظلم ، الى اقامة حرية حكيمة لا حد لها على الانقاض الخالدة لاعداء الشعوب » ويقام هذا الاجراء مقروناً بالهتاف العادي ، ثم يتلى محضر الجلسة السابقة ، ثم يأذن المختار الاعظم « للكوكب » بالكلام ، فيبدأ هذا بوصف العصر الذهبي الذي كان يخضع فيه البشر لقوانين الطبيعة ، وكانوا يتحلون بالفضائل والخلال الحسنة ، ويصف الحالة التعيسة حتى تعاني منها « اوسوني » (ايطاليا) الحسناء ، ويصور قضاءها الرائع ، بعبارات مؤثرة ، ثم يقول : « انها تخضع اليوم لثلاثين شخصاً يسمون بالملوك ، يلوذون بما يسمونه أملاكهم ، ويسومون بمر الخسف كل الشعوب المنكودة التي ترزح تحت سلطانهم الجائر المتخاذل . فلاجل انقاذ الوطن منهم ، انشأ أبناء أعمامنا الاول ، أسلافنا ، الكربوناري المحترمة ، وقد نفيت الحرية والمساواة من العالم فلا تجرؤان أن تظهرا في وضح النهار ، بل تلتجئان الى الغابات ، وتختفيان في « البيوع » ، وفي الكهوف السحيقة حيث ترهف فؤوسها وخناجرها وتقسم أن تسحق في يوم واحد كل الطغاة الذين يرهقون كل هذه البلاد الجميلة ، وقد اقسمنا نحن جميعاً على اشارة منقذ العالم بأن نعيد الى الارض فلسفته المقدسة ، وقد حلت الساعة أبناء العم الاعزاء ودق ناقوس الثورة العامة ، وزحفت الشعوب المسلحة ، واذا ما لاحت تباشير الصباح هلك الظالمة وظفرت الحرية ، فلنستعمل الساعات الباقية القليلة التي تمضي قبل ان نصل الى دقائق انتقام قصير هائل ، في قراءة واعلان القوانين الجديدة التي ستحكم « اوسوني » الحسناء ، وتدمجها في شعب واحد ، في حدودها الطبيعية ، وتجعلها حرة ، سعيدة ، مزدهرة كباقي أمم العالم»

وبعد أن ينتهي « الكوكب » من القاء هذا الخطاب ، يتلو المختار الاعظم الرئيس صيغة القسم بصوت عال وهي ، « أنا ، الوطني الحر «ابن اوسوني » الحسناء ، مجتمعاً مع اخوتي في ظل نفس الحكومة ، ونفس القوانين العامة التي اعمل لاقامتها ولو كلفتني حياتي ، اقسم بحضور أستاذ الكون الاعظم ، والمختار الاعظم ابن عمي الفاضل ، ان استخدم كل دقائق حياتي في اعلاء شأن مبادىء الحرية ، والمساواة ، ومقت

الظلم ، التي هي روح جميع الاعمال العامة السرية لجمعية الكربوناري ، وأتعهد أن أبث حب المساواة في كل الانفس التي استطيع ان أؤثر عليها ، وأتعهد أن أقاتل حتى النهاية اذا لم يمكن اقامة الحرية بلا نضال ، واتقبل اذا نكبت بالحنث في قسمي كل ما يوقعه عليّ أبناء عمي المختارين العظماء من العقوبات مهما كانت من الصرامة والشدة ، واستعد ان اصلب عارياً في وسط « فنديتا » ، متوجاً بالشوك كما توج المسيح منقذنا وقدوتنا ، واقبل أن يبقر بطني حياً ، وأن ينتزع قلبي وامعائي لتحرق ، وأن تقطع أوصالي وتشرد ، وأن تلقى جثتي بلا دفن ، هذه تعهداتنا التي نلزم بها الجميع أبناء العم الفضلاء ، فهل تقسمون باتباعها ؟

كل الحضور معاً ـ بلى نقسم

المختار الاعظم ـ أجاب الله دعاءكم أبناء العم الفضلاء ! ان رعده يدوي ، وقد قبلت ايمانكم والشعب على أهبة القتال ، وسوف يفوز ! فالويل لكم اذا خنتموه !

ثم يتلو الخطيب بعد ذلك نص الميثاق الدستوري الذي وضع «لاوسوني» والذي يجب أن يطرح لمصادقة الامة الحرة المتحدة

٣ ـ وقد تقدمت الكربوناري في ايطاليا بخطوات سريعة واستطاعت منذ سنة ١٨٢٠ أن تضرم في نابولي نار حركة ثورية اضطر الملك معها أن يذعن لرغبات الشعب وأن يقسم باتباع دستور حر ، غير ان فرديناند لم يكن مخلصاً في قسمه وما لبث أن نكث بجميع عهوده ، واستعان بالجنود النمسوية على تمزيق الكربوناري في نابولي ، وكذلك مزقت الكربوناري في بيمون حيث تغلب الرجعيون بمؤازرة النمسويين على الاحرار ، وركدت ريح الكربوناري حيناً في ايطاليا ، غير انها كانت قد جازت جبال الالب وأخذت تبث مبادئها في فرنسا

وفي شهر يوليه سنة ١٨٢٠ ذهب فتيان من أعضاء البناء الحر الفرنسي هما دوجيد وجوبير الى نابولي وتطوعا لخدمة الحكومة الجمهورية ، فانضم جوبير الى الجيش المقاتل للنمسويين ، والتحق دوجيد بالكربوناري وتدرج في مراتبها وأسرارها ثم عاد الى باريس وجمع نفراً من أصدقائه وأسس شعبة فرنسية للكربوناري. ويقول لوي بلان انه لم يكن لهذه الشعبة غرض معين ، وكل ما تقرر من مبادئها يتلخص فيما يأتي : « وحيث ان القوة ليست حقاً ، وان البوربون استقدموا بواسطة الاجنبي ، فان ابناء الكربوناري (الفحامين) قد اجتمعوا ليردوا الى الامة الفرنسية حقها الحر في اختيار الحكومة التي تلائمها » . ويقرر المسيو جان فيت احد اعضاء الشعبة الفرنسية

عن أصلها ما يأتي : « في سنة ١٨٢١ اجتمع الزعماء الاحد عشر في كابوا ، وقرروا ان يوفدوا الى الخارج عضوين يتفاهمان مع زعماء البرج الاعظم (وهو ما يقابل المشرق الاعظم في البناء الحر) ، وليبحثا ما اذا كان الافضل ان ينقل مركز ادارة الكربوناري . وقد رؤي من المناسب نقله الى باريس لانها اكثر العواصم الاوربية اتصالا بمدن القارة ، هذا فضلا عن انها مقر اعظم أعضاء الجمعية ، وفيها اخصب موارد للمال . وعلى ذلك اعدكل شيء لادماج « البيع القديم » (Alta Vendita) مع البرج الاعظم ، الذي كان يشرف وقتئذ على ادارة الجمعيات السرية في باريس »

وقد عدلت الكربوناري الفرنسية مبادىء الكربوناري الايطالية وقوانينها لتوافق الآراء والمشارب الفرنسية . وقسمت الى اربع دوائر او بيوع . البيوع الخاصة ، والبيوع المركزية ، والبيوع الراقية ، والبيوع العليا ، وبسطت اجراءات القبول ، ووضعت قواعد حصيفة لاتصال المراتب الاربع دون لفت نظر السلطات ، فجعل لكل بيع تتكون من عشرين شخصاً نائباً ، وجعل من عشرين نائباً ينوبون عن عشرين بيع مختلفة بيعاً مركزياً يختار أيضاً نائبه ليتصل بالبيع الراقي ، وهذا يختار له نائباً يتصل بالمرتبة الاخيرة أي البيع الاعلى ، وبهذه الوسيلة يجهل أعضاء البيوع المختلفة بعضهم بعضاً ، هذا الى أنه حظر على كل « فحام » أن يحاول التعرف بأبناء عمومته ، وحظر التفاهم أو التخاطب بالكتابة ، وجعل بواسطة النواب فقط ، ومن ذلك نرى أن الجمعية كانت وقت الخطر الداهم تستطيع بأيسر أمر أن تقطع كل حلقة للاتصال ، وأن تغدوا أفراداً عاديين لا تربطهم رابطة ، ولا تثقلهم مسئولية . وكان العضو يقسم عند التحاقه بكتمان وجود الجمعية وأسرارها وأعمالها وأن يجهز نفسه ببندقية وخمسة وعشرين طلقة . وكان رسم الالتحاق خمسة فرنكات وعلى العضو أن يدفع فرنكا في كل شهر

والى جانب الكربوناري المدنية أنشئت شعبة عسكرية في الجيش وقسمت الى مراتب (بيوع) مختلفة أيضاً ، غير أنها لم تكن تظهر اوقات السكينة العامة أو بالحري كانت تندمج في الشعبة المدنية . اما في اوقات الاضطراب والتمهيد للثورة فكانت تثب الى الطليعة وتقود الحركة وتقوم بالادوار الهامة

ولم تلبث الكربوناري الفرنسية أن غدت قوة عظيمة اذ شد أزرها أقطاب الحزب الحر مثل لافاييت ، ودي كورسيل ، وجاك كشلان وهم من النواب ودي شوان المستشار في البلاط الملكي ، وجماعة من أعلام المحامين وغيرهم . وانتخب لافاييت

رئيساً لها . وعهد الى الاعضاء الفتيان بث دعوة الجمعية في جميع الانحاء الفرنسية ، فلم تلبث أن استفحلت وتكاثر الاعضاء حتى بلغوا زهاء اربعين الفاً . ولما حان وقت العمل ، عملت الكربوناري بمهارة وعزم حتى قال مؤرخ ان تاريخ الجمعيات السرية هو تاريخ فرنسا في هذا العصر . وقال جان راينو : « ربما لم تكن الكربوناري حركة سياسية كبيرة ، غير أنها كانت على الاقل عرضاً سياسياً كبيراً ، ومن هذه الوجهة تستحق البحث والدرس . وهي ان لم تكن قد فازت بتحرير فرنسا من النير الذي فرضه الاجنبي عليها ، فقد ساعدت على الاقل في اظهار تعلق الشعب الفرنسي بمبادىء الثورة »

على أن الكربوناري الفرنسية لم تكن كما رأينا تعتنق مبادىء محدودة وغايات معينة ، وكانت هذه الغايات والمبادىء تنحصر عند معظم الينبوع في اعادة حقوق الامة اليها وفي المطالبة بانشاء جمعية دستورية . وكانت أول وثبة عملية قامت بها في سنة ١٨٢١ ولكنها أخفقت لتردد لافاييت . ثم دبرت عدة مؤامرات واضطرابات فشلت كلها وانتهت بمصرع نفر من اعضائها يقول لوي بلان: «ثم أنحت الكربوناري من بعد ذلك تجرر أذيالها فوق دماء شهدائها »

: ــ أما الكربوناري الايطالية فلبثت حيناً تجثم في الخفاء ، ثم عادت الى نشاطها ولا سيما في الولايات البابوية فارتاع البابوات لذلك ، ونشط البابا ليون الثاني عشر الى محاربة الجمعيات السرية فأذاع منشوراً أخذ فيه عليها تعرضها لسلطة الامراء وسلطة الكنيسة ، ثم أعقبه بقرار بحظر انشاء الجمعيات السرية ووجودها في رومة والولايات البابوية ، ويفرض الموت عقوبة لكل من ينتمي الى احدى هذه الجمعيات او يؤازرها على ان المنشور والقرار لم يكفيا لاخماد جذوة الكربوناري ، فسلك البابا طريقاً أخرى للنضال وأنشأ لمحاربة الكربوناري جمعية سرية كاثوليكية هي : « الايمان المقدس » تؤلف من أبناء البلاط وكبار القسس ورئيسها الاعلى هو البابا ، وأعظم دعاتها اليسوعيون ، ولها مثل الكربوناري مراتب ولوائح ورموز . وكانت تزعم أنها تعمل لاستقلال ايطاليا كسباً لعطف البسطاء وستراً لغايتها الحقيقية وهي إعادة النظام الكاثوليكي والاقطاعي . ومبادىء الجمعية وغاياتها واضحة في القسم الذي يفرض تأديته على الملتحق وهو: « أقسم بأني أثبت في الدفاع عن القضية المقدسة التي اعتنقتها ، وألا أبقي على فرد ممن ينتمون الى طائفة الاحرار الشائنة مهما كان مولده أو قرابته أو ثروته ، وألا اشفق ذرة على دموع الاطفال أو الشيوخ ، وان أسفك حتى آخر قطرة

دم الاحرار الاوغاد دون اعتبار للجنس أو السن او المقام . وأقسم أيضاً بالبغضاء الخالدة لكل أعداء ديننا المقدس دين الكثلكة الرومانية الذي هو الدين الحق الوحيد »

وحاولت الكربوناري ان تثير الثورة في نابولي سنة ١٨٢٨ فاخفقت . وفي سنة ١٨٢٩ عقب وفاة ليون الثاني عشر وقبل انتخاب خلفه بيوس الثامن قامت في الولايات البابوية عدة ثورات محلية دبرتها الكربوناري وكان أثر الكربوناري يظهر أينما ظهر علم الاستقلال والحرية . وبعد ذلك بقليل تحالفت الكربوناري مع الجمعيات السرية الاخرى التي أنشأها ماتسيني والتي كان أهمها جمعية ايطاليا الفتاة وعكفت جميعها على العمل لانشاء الوحدة الايطالية . وكان البرنس لويس بونابارت الذي حكم فرنسا بعد باسم نابوليون الثالث من اعضاء الكربوناري ، وقد اشترك في كثير من الحركات الثورية التي قامت في الولايات البابوية لتحطيم النير البابوي . وكذلك كان اللورد بيرون الشاعر الانجليزي

وقد أدت الكربوناري دوراً هاماً في حركة الاحياء والوحدة الايطالية ، وإذا لم تكن قد اشتركت فعلا في سلسلة الحروب والثورات الايطالية التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر وانتهت بتحرير ايطاليا فلا ريب أنها عملت كثيراً للتمهيد اليها . وقد كان من حسناتها أن الفت بين الايطاليين من جميع الطبقات والمقاطعات وعلمتهم أن يعملوا يداً واحدة على سحق الاستبداد والنير الاجنبي

النهليزم والنهليست

Nihilism

(١) أصل النهليزم. ترجنيف والمجتمع الجديد . نزعة النهليزم وغاياتها . ذيوع دعوتها (٢) القيصر ينكث بوعوده . نشاطه في مطاردة النهليست . النهليزم مثل الاشتراكية . أقوال المؤرخ شتبنياك . تطور النهليزم (٣) بدء النضال الثوري . تعريف صوفيا باردين للنهليزم . المعركة الدموية . جرائم القيصرية وانتقام النهليست . اتحاد الشعب الثورية . مقتل القيصر اسكندر الثاني . انحلال النهليست واشتداد المطاردة . حوادث الانتقام الاخيرة . عود النهليست الى العمل . أثر النهليزم في تحريك الدعوة الشيوعية

١ـلعل أصح ما توصف به النهليزم انها طور من اطوار الحركة الثورية في روسيا بيد انها بدأت دعوة سلمية ولم تكن اكثر من نزعة الى الاصلاح والتجدد ملكت عقول الشبيبة الروسية ، ثم استحالت بعد ذلك الى نزعة ثورية ، وانتهت الى الانتظام إلى طائفة ثورية سرية تعمل لتحقيق غاياتها بالوسائل الثورية المعتادة أي بالعنف والنضال الدموي ، ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتبر النهليست جمعية سرية بالمعنى الذي نطلقه على الشعلة البافارية أو الكربوناري

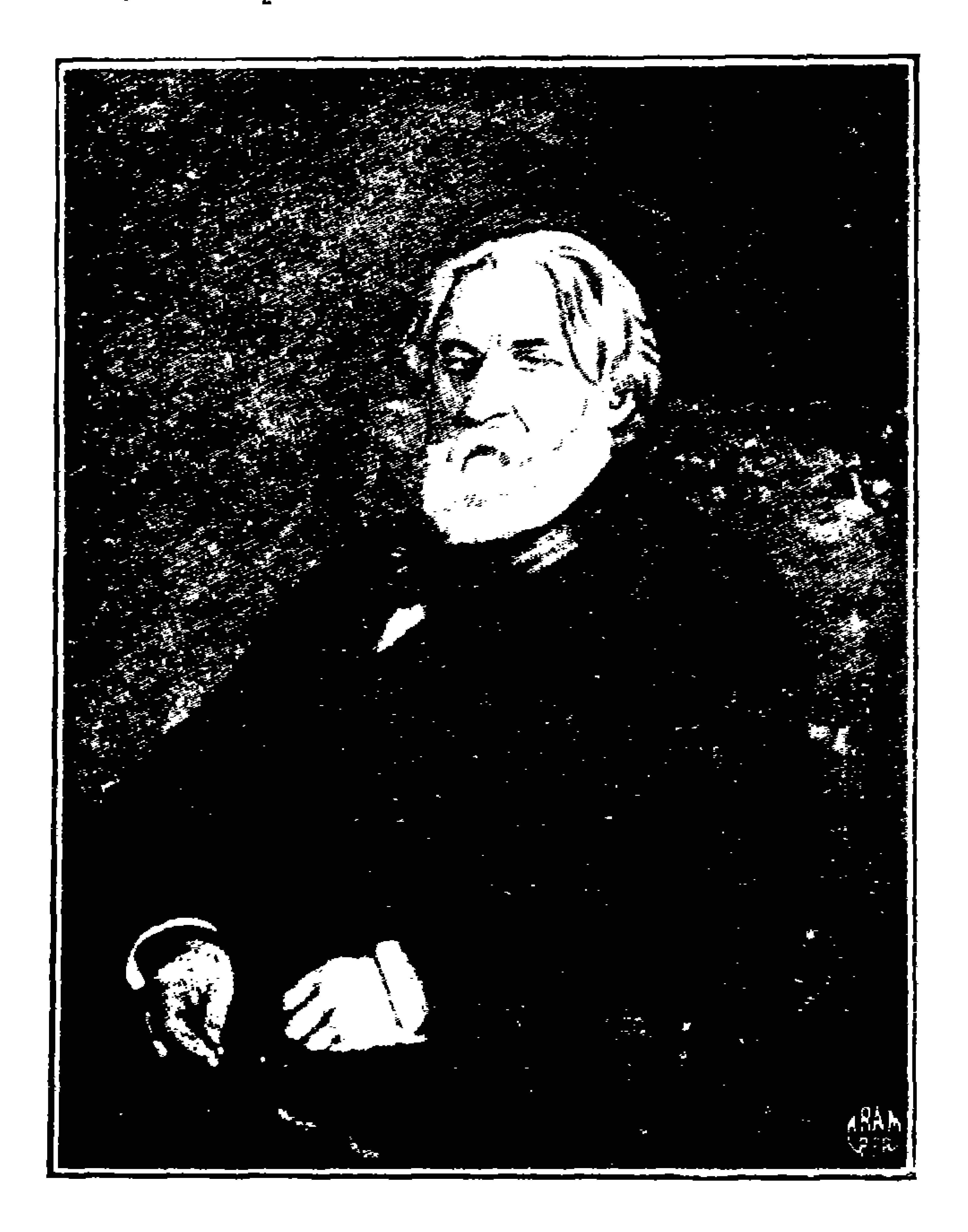
وأصل الكلمة يرجع إلى أوائل عهد اسكندر الثاني ، وكان أول من استعملها الروائي الروسي ترجنيف في قصته المعروفة « الآباء والابناء » التي ظهرت سنة ١٨٦٢ . ففيها يصف ترجنيف طرازاً جديداً من الشبيبة لاحظ انه يخرج على العرف والمعتقدات العامة ، ويسخر من جميع التقاليد الاجتماعية ، ويتحدث عن قلب المجتمع وتنظيمه على أساليب علمية محضة ، ويغير مظاهر الحياة العامة حتى في أتفه الشؤون فيطلق الفتيان شعورهم ويقص الفتيات شعورهن . وهذا الفريق من الشبيبة لا يعبأ بما تثيره آراؤه وتصرفاته في عامة الناس من الدهشة والسخط لأنه يعتبر نفسه فوق الرأي العام ، ويسخر من كل ما هو معتبر ومقبول لدى العامة ، ويزدري كل ضروب الثقافة والشعور والرقي المعروفة ، ويؤثر النظريات المادية المحضة ، وهو الفريق الذي عناه ترجنيف في قصته بالنهليست او « العنصر المعدوم » . على انه لا ريب في ان هذا الفريق الذي لم ينل عطف ترجنيف لم يكن سوى نذير حركة تجديد عقلي هامة اجتاحت كل الطبقات الروسية المستنيرة ، وبدأت عهداً جديداً في تاريخ روسيا الحديث

وكانت النزعة الغالبة في هذه الحركة الجديدة ترى في النظم القديمة كالدين، وحياة الاسرة، والملكية الشخصية، والادارة المركزية، عقبات في سبيل النهوض والتقدم، وترمي الى محوها واستبدالها بالعلوم والحب الحر، والملكية العامة، والحكم الديموقراطي. وكانت الدعوة الى مثل هذه النظريات المتطرفة في حكومة طاغية كحكومة القيصر لا تذاع إلا بواسطة الآداب المستورة، والنقد المعنوي، وخاصة بواسطة القصص التي كان يكتبها اعلام هذا العصر ممن تفاءلوا خيراً بالحركة الجديدة، ومن أعظم هذه القصص وأبلغها أثراً في النزعة الجديدة قصة تشرنشفسكي التي كتبها في السجن وعنوانها « ماذا يجب أن نفعل ؟ »

ذاعت النظريات والآراء الجديدة بسرعة مدهشة وخصوصاً بين جميع الطبقات المتنورة كالنبلاء والموظفين ورجال الجيش وأبناء التجار وأبناء الكهنة. وكان القيصر الجديد منذ ارتقاء العرش يعد باجراء كثير من الاصلاحات المنشودة، واستفادت الحركة الجديدة كثيراً من تسامحه في إخماد الدعوات والآراء الحرة، وازدهر في عهده طائفة من أعلام الكتاب الاحرار مثل تشرنشفسكي، ودبروليوبوف، ولافروف وكروبتكين وغيرهم وخاضوا المعركة جميعاً باقلامهم وألسنتهم. وكان أخص ما يميز الدعوة الجديدة على قول شتبنياك هو « إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً يستند إلى الحرية الفردية، وقد كانت النهليزم ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسي، ولكن على الطغيان المعنوي الذي يرهق حياة الفرد الخاصة ». وسددت السهام الاولى نحو الدين الذي اخذ الروس المتنورون يتحررون من فروضه وتقاليده، ثم سددت بعد ذلك الى نظام الاسرة حيث أخذت المرأة الروسية تتحرر من رقها القديم لتغدو قرينة الرجل، مساوية له في معظم الحقوق الاجتماعية

٢ ـ ولم تأت سنة ١٨٧٠ حتى كانت النهليزم قد جازت مرحلتها الاولى، وخرجت من طور الكلام والدعوة الى طور العمل. ذلك ان اسكندر الثاني لم يحقق كل وعوده في الاصلاح، ولم يفض ما حققه منها إلى تخفيف الويل الذي كانت ريحه تهب على جميع الطبقات، ولم يخرج الفلاحون من غمار الرق إلا ليقعوا بين براثن المموّلين والمرابين، هذا إلى أن القيصر نفسه ارتاع لتقدم الحركة الثورية فوقف سير الاصلاح الحر فجأة، وارتد إلى النضال ونشطت شرطة البلاط الى القمع والمطاردة. وكانت الثورة البولونية التي قامت في سنة ١٨٦٤ أول نذير بالشقاق والخصومة التي اخذ يذكو أوارها، فاخذت النهليزم تشق لنفسها سبلا أخرى. وكانت الحركة

الاشتراكية التي انتهت بقيام « الكومون » في باريس قد تسربت آثارها إلى معظم المجتمعات الاوربية وغدت الاماني الاشتراكية الاجتماعية كتحرير العمال ، وانقاذ الطبقات العامة مما تعانيه من البأساء والحرمان على يد الطبقات الخاصة المنعمة التي تستغل كدها وتستثمر عملها ، ومحو الفوارق الاجتماعية التي تجعل من سواد المجتمع



ترجنيف

رقيقاً مضطهداً وأمثالها ، قبلة لكل الدعوات الاشتراكية والثورية . يقول شتبنياك في كتابه « روسيا الدفينة » ، « هذان هما المرحلتان اللتان عثلت فيهما الحركة العقلية الروسية ، وقد لبثت إحداها عشرة أعوام من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٧٠ . وبدأت الاخرى من سنة ١٨٧١ . فأي فرق بينهما ؟ كانت النهليزم تبحث عن سعادتها الخاصة بأي الأثمان ، وتجعل منها مثلاً معقولاً حقيقياً للحياة . اما الثائر فيبحث عن

سعادة غيره ، ويريدها بأي الأثمان ، ويضحي من اجلها سعادته الخاصة ، ومثله الاعلى هي حياة فيضها الغناء ، وموت شهيد . ومع ذلك فقد شاء القدر ألا يترك الاولون الذين غلوا في بلدهم الخاص ذكراً في اوربا ، في حين ان الآخرين قد نُصّروا باسم اولئك الاسلاف المجهولين بعد أن غنموا اسماً قرينه الرعب والروع »

خرجت النهليزم اذن الى طور الدعوة الثورية واندس دعاتها وسوادهم من ابناء الاشراف والبورجوازي الى جميع انحاء روسيا،واخذوا يبثون دعوتهم بين الفلاحين والعمال بواسطة النشرات والخطب والاجتماعات والمحادثات . ونشط المنفيون من الدعاة الى العمل في الخارج وخصوصاً في سويسرا التي كانت مهبط الطلبة الروس من فتية وفتيات . وكان اولئك الطلبة الذين تخرجوا في الاجواء الحرة يعودون الى بلادهم يضطرمون بالنظريات والتعاليم الحديثة ، وينشطون الى بثها بين مواطنيهم . يقول شتبنياك ، « كانت هذه رسالة اكثر منها دعوة ، كان ثمة ما يشبه صرخة لا ندري من اين أتت تدعو كل روح حي الى افتداء الوطن وافتداء الجنس البشري ، وكانت الارواح لدى هذه الصرخة تنهض متعثرة باذيال عار الحياة الماضية وآلامها » . ثم يقول:«ولكن هذه النزعة النبيلة ما لبثت أن تكسرت على صخرة الحقيقة ، ذلك ان الدعاة استطاعوا ان يحشدوا جيشاً أعزل من انصار النظريات الجديدة ، ولكنهم رأوا انهم انما يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد ، ولا سبيل لهم أن يحركوا كتلة الشعب التي ترزح في أغلال الرق والذلة ، سيما وقد ضوعفت اجراءات القمع ، ومالت الحكومة بالمطاردة والاضطهاد على اولئك الرجال والنساء والفتية الذين يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية » . وهنا تحرك المضطهدون ليأخذوا بالثأر ، « وانقلبت الاحمال ذئاباً » على قول أحد الكتاب ، وبدأ عهد القتل السياسي الذي اقترن باسم النهليزم

٣ ــ وكان اول مظهر عنيف للخصومة بين القيصرية والنهليزم هو اقدام القيصرية في سنة ١٨٧٧ على القبض على خمسين شخصاً من انصار النهليزم ومحاكمتهم في موسكو بتهمة التآمر . وكان بينهم كثير من الطلبة الذين تخرجوا في سويسرا، ومن هؤلاء صوفيا باردين التي عرفت مثل النهليزم امام قضاتها فيما يلي : « ان الجماعة التي انتمي اليها هي جماعة الدعاة السلميين . ان غايتنا هي أن نبعث الى نفس الشعب مثل نظام أفضل واقرب للعدالة ، او بالحري ان نوقظ المثل الغامض الذي يجثم في نفسه ، وان نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود في المستقبل الى الوقوع في نفس الاخطاء ،

ولكن متى تدق ساعة هذا المستقبل الحميد ؟ هذا ما نجهله ، وليس علينا نحن ان نعين هذه الساعة »

ولما رأت الحكومة ما يهددها من أخطار الدعوات الحرة التي تقتصر على المطالبة بالاصلاحات الدستورية ، والدعوات الثورية التي ترمي الى تحقيق مثلها بالعنف جنحت الى مقاومة الاثنين معاً ، فجدت في مطاردة الاحرار والثوريين ، وقابلها اولئك بالارهاب الثوري والاغتيال المنظم . وبدأت بين الفريقين معركة هائلة ، فامعنت الحكومة من ناحيتها في القبض على النهليست وسجنهم ، وتشريدهم ، ونفيهم الى سيبيريا ، وشنق كثيرين منهم دون محاكمة ، وأمعن النهليست من ناحيتهم في إغتيال رجال الشرطة والقضاء والنيابة ومن اليهم من مطارديهم . ولما تفاقم الصراع ، واشتدت وطأة القيصرية على الاحرار والثوار اعتزم النهليست ان يستأصلوا الشر من جذوره بقتل اسكندر الثاني مضطهد كل دعوة حرة ، وخصيم كل نصير للاصلاح والتجدد . ففي اوائل سنة ١٨٧٨ قبض على مائة وثلاثة وتسعين من النهليست وقدموا الى المحاكمة في بطرسبرج (لننجراد) ، فهلك في بدء المحاكمة من المتهمين ثلاثة وتسعون بالانتحار ، والتعذيب ، وقتل النهليست اثني عشر جاسوساً وجلد الشرطة طالباً متهماً يسمى بوجولوبوف لانه لم يحي الجنرال تريبوف مدير الشرطة ؛ وأطلقت فتاة تدعى فيرا زاسولتش النار على تريبوف فجرحته جرحاً خطيراً (فبراير سنة ١٨٧٨) ؛ وقدمت الى المحاكمة فبرئت ، وحملت على الاعناق بين الضجيج والهتاف . ثم فرت خوفاً من المطاردة والانتقام . وفي اغسطس سنة ١٨٧٨ اعدم الاشتراكي كرفالسكي بالرصاص في اودسا ، فلم تمض بضعة ايام حتى انتقم الثوار له بقتل رئيس الشرطة مزنتزيف . وفي فبراير سنة ١٨٧٩ قتلوا في خاركوف حاكم المقاطعة البرنس الكسيس كروبتكين ، وفي ابريل حاولوا قتل مدير الشرطة الجديد درنتلين . وفي مايو شنقت الشرطة فاليريان اوسنسكي أحد اقطاب حزب الثورة واثنين من رفاقه في كييف

ابثت هذه الحوادث الدموية بضعة أعوام تضج لها روسيا ، ويضج العالم . وفي ٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية اعدام القيصر اسكندر الثاني . وهنا اتحدت شعب الحزب الثوري بعد التفرق ، وانتظمت بعد الاختلال ، وعقد مؤتمر عام في زجيرس . ونظم النهليست شعباً متحركة للنضال لكي تستطيع مغالبة الشرطة ومجانبة مطارداتها ، يتألف سوادها من الفدائيين الذين وهبوا حياتهم للثورة . ومع ذلك فقد أخفقت عدة مشاريع لقتل القيصر ، حدث في اولها ان اللغم الذي وضع

تحت القطار الذي يسافر فيه القيصر لم ينفجر ، وحدث في ثانيها ان القنابل انفجرت ولكن القيصر لم يكن في القطار الذي أصابته القنابل (ديسمبر سنة ١٨٧٩) ، وحدث في الثالث ان القيصر لم يكن بالمصادفة في قاعة الطعام الشتوية التي نسفها خولوترين (فبراير سنة ١٨٨٠) . وكانت مدبرة المشاريع الاولى امرأة تدعى صوفيا بيروفسكايا بمساعدة زميلين هما تيرابيف وهارتمان . وفي اول مارس سنة ١٨٨١ وقع القضاء وجرح اسكندر الثاني جرحاً ذهب بحياته من شظايا قنابل القاها عليه ريساكوف وجرمفتسكي على ضفة ترعة سانت كاترين . فقبض على ملقي القنبلة وعلى اربعة آخرين من النهليست ومنهم بيروفسكايا وشنقوا بعد ذلك بايام قليلة . ثم شنق من النهليست عشرة آخرون في سنة ١٨٨٢

وعلى أثر مقتل اسكندر الثاني وجهت اللجنة التنفيذية منشوراً الى خلفه القيصر الجديد ، اقترحت عليه فيه المهادنة . وكانت الجماعة الثورية قد اضمحلت كثيراً من جراء النضال والمطاردة ، وهلك صفوة النهليست ، وشرد المرهبون والمتآمرون ، ولم تجن الحركة الثورية شيئاً من وراء الاغتيالات الفردية ، وضاعفت الشرطة الرقابة والتجسس ، واستطاعت أن تدس بعض رجالها الى صميم الشعب الثورية . ومن ثم قلت حوادث القتل المنظم . وكان أهم هذه الحوادث بعد مقتل اسكندر الثاني ، مقتل سترلنكوف النائب العام لمحكمة كييف العسكرية في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، ومقتل رئيس الشرطة سوندكين في ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، وحدث اعتداءان على حياة القيصر اسكندر الثالث ، أحدهما في مارس سنة ١٨٨٧ ، والآخر في اكتوبر سنة ١٨٨٩ حيث حاول النهليست أن ينسفوا القطار الذي يقل الاسرة القيصرية كلها في بوركي (القوقاز) . ثم هبطت الحركة تدريجياً وركدت ريح النهليزم ، بعدما صادفت من خيبة ، وما لقيت من اصرار القيصرية على مطاردتها وسحقها بيد من حديد ، وبعد ان هلكت زهرة دعاتها وأنصارها

ثم استعادت النهليزم شيئاً من نشاطها في اوائل هذا القرن ، ففي سنة ١٩٠١ حدث شغب في الجامعات الروسية وفي سنة ١٩٠٢ حدثت اضطرابات خطيرة بين الفلاحين في كثير من الانحاء ، ثم قتل على أثر ذلك وزير الداخلية سيباجين . على ان المثل التي اعتنقتها الشبيبة الروسية في عهد اسكندر الثاني تحطمت كلها على صخور الحقائق المادية . وفي اوائل عهد القيصر نيقولا الثاني اضطرمت الحركة الثورية من

جديد غير انها أخذت تهبط امام الاصلاحات الدستورية التي انتهت باقامة النظم البرلمانية في روسيا

على ان النهلزم اذا كانت قد أخفقت في اغراضها الثورية فقد مهدت السبيل الى وثوب دعوة ثورية جديدة كانت تجثم في الخفاء في صدور دعاة يعملون لبثها في خفاء وسكينة ، دعوة ذات مثل شاملة شاسعة ، لا تقف عند تغيير نظام او حكومة ، بل ترمي الى سحق النظم القديمة من الاساس

هذه الدعوة هي الشيوعية التي سنعنى بها في فصل قادم

التوجندبند

Der Tugendbund

لم تخمد الشعلة البافارية بمطاردة المختار لها وتمزيقها في بلاده ، على انها لم تلتئم على نحوها القديم ، بل كانت مبعثاً لطائفة من الجمعيات السرية الاخرى. ففي سنة ١٧٩٠ وثبت من مهد الشعلة جمعية سرية وطنية قوامها الشباب والطلبة تعرف بالتوجندبند او مجمع الفضيلة . وكانت تقصد قبل كل شيء الى التأثير في نظم المانيا السياسية والى توجيه سياسة الملوك والوزراء . وقد ظهر نشاطها واضحاً في عهد الحروب النابوليونية التي مزقت الامارات الالمانية وحطمت عظمة بروسيا . ففي سنة ١٨٠٧ عقدت جمعية عامة من اعضاء التوجندبند في كينجزبرج ، فاقترح نفر من أقطابها ومنهم البارون شتاين ، والكونت شتاديون والجنرال بليخر ان تعدل غايات الجمعية وان تعنى قبل كل شيء بانهاض نشاط الشعب وشجاعته لكي يتابع النضال ، واغاثة سكان المقاطعات التي عسف بها الغزو الفرنسي . فصادقت الجمعية على هذا الاقتراح ، وعقد على أثر ذلك بين التوجندبند وبين الوزارة الالمانية التي كانت تعرف مقدار نفوذ الجمعية وتوغلها بين شباب البلاد اتفاق سري لم يلبث ان انتهى بتحطيم المشروعات النابوليونية ، وعهد الى لجنة من ستة اعضاء مركزها كينجزبرج ان تدير اعمال الجمعية ، والفت في المقاطعات لجان محلية تعمل تحت اشراف اللجنة الرئيسية وهذه اللجان بدورها تشرف على اعمال القاعات او الدوائر ، وتبحرى في سياستها وتعاليمها ان تثير حماسة الشعب ، وان تعمل على تشجيعه ومساعدته العقلية والمادية بجميع الوسائل . وكان يقبل في سلكها كل عضو يمكن ان يعمل على تحقيق هذه الغايات مهما كان مركزه وظروفه ، ولا يقصى عنها سوى القصر وذوي الخلال الفاسدة . ولم تلبث التوجندبند ان غدت قوة هائلة تنفذ الى جميع اركان المانيا ، وتعمل بجميع الوسائل على بث روح وثبة عامة تقصد الى تحرير المانيا من نير المغير ، والى صون كرامتها من عبث المعتدي . وقد ارتاع نابوليون لنشاط هذه الجمعية وعظم تأثيرها في عقلية الشعب الالماني وفي تحريكه وتحريضه ، فطلب الى الحكومة البروسية ان تضع حداً لمساعيها الخفية ؛

وتظاهرت الحكومة البروسية باجابة مطلبه فاتخذت بعض اجراءات لحل الجمعية وتشريد نفر من أقطابها ، ولكن معظمهم بقي على رأس الجمعية يدير أعمالها وجهودها. وفي سنة ١٨١٠ أرغم البوليس الحربي الفرنسي الحكومة البروسية على القبض على نفر من زعمائها، وضبط أوراقهم . وحينئذ ركد نشاط التوجندبند حيناً غير انها استأنفت نشاطها في أواخر سنة ١٨١٢ ، واشتدت دعوتها ، وتقدم لتأييدها نفر من كبار القواد والساسة ، وبلغ من نفوذها ان كانت تفاوض الامراء المحالفين لبروسيا ، وتتعهد أن تضع رهن تصرفهم خدمات كل أعضائها ومواردهم اذا منحوا شعوبهم نظماً ديموقراطية حرة. وقد برت بوعودها في ذلك وساعدت كثيراً من أولئك الامراء على تحرير بلادهم ، ولكن الامراء لم يفوا بعهودهم في تشكيل الحكومات والنظم الحرة . وفي أواخر سنة ١٨١٣ اخذت التوجندبند في الانحلال بعد انتصار المانيا في الحرب التحريرية الاولى ، وانتحق معظم أعضائها بجمعيات سرية أخرى كانت تعمل على حلها السلطات تباعاً

وكان لدعوة التوجندبند أثر عظيم في سياسة بروسيا لهذا العهد ، وفي التشريع البروسي الذي تلا وثبة بروسيا وتحريرها ولا سيما في تنظيم الجيش البروسي واصلاحه

(٢٢)





التوزيع :
مكتبة الشواف
الرياض العليا - شارع الثلاثين
هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧ /٤٦٢٢٦٣٠